
رولا فارس ضيا
أوراق محرَّمة
رواية
مدونة ابو عبدو
الفارابي

رولا فارس ضيا

أوراق محرَّمة

روايـــــة

دار الفارابي

الكتاب: أوراق محرّمة
المؤلف: رولا فارس ضيا
لوحة الغلاف والرسوم الداخلية: فاطِمة ضيا

الناشر: دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان
ت: ٣٠١٤٦١(٠١) - فاكس: ٣٠٧٧٧٥(٠١)
ص.ب: ١١/٣١٨١ - الرمز البريدي: ٢١٣٠ ١١٠٧
www.dar-alfarabi.com
e-mail: info@dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى: نيسان ٢٠١٦

ISBN:978-614-432-567-4

الإهداء

إلى الحبّ المصلوب في العَراء

إلى الفجر الذي سلّم نفسه ساكنًا أمام لغز القدَر

إلى التائهينَ في مكْر الخطيئة.

شكر

إلى أولادي فاطمة، لؤلؤتي التي خطّتْ بأناملها البيضاء غلافَ الرواية ورسوماتها،

وهديل وسلين وعليّ، قلائدي البرّاقة.

إلى النور الذي أضاءَ عتمة كوابيسي وأزاح حبالَ القيدِ عن جيدي، لأمسحَ الغبارَ عن وجنة مخيّلتي... إلى صديقي وحبيبي حسن ضيا.

ورقة التّينِ ليس ترثي صباها
حينما تهوي، بل تغازلُ طينا

علاء صعب

قصّة ريف مبنيّة على أسسِ الواقع المجتمعي، ظواهرِهِ وخفاياه. أحداثها، أزمانها، أمكنتها، وشخصياتها إنّما صيغَتْ بأسلوبٍ روائي.

مشَتْ على الشاطئ، يعلو قدمَيْها الحافيتينِ فستانٌ أبيضُ شفّاف، وعلى رأسِها قبّعةٌ ملفوفةٌ بشالٍ مُلوَّن. عيناها تائهتان في مغيب الشمس، تتأمّلان الخيوط الحمراء في أفق البحر. وفي غمرة شرودها، تراءتْ لها وجوهُ أولادها، وسمعتْ صوت الموج أنينًا يُحاكي وجدانها. سقطتْ على الرمل، أغمضتْ عينيها ورفعتْ يديها إلى السماء، تناجي ربَّها:

ربّي الذي في السماء، تباركَ اسمُكَ، ارحمْ قلبًا أضناهُ العذابُ.

أصلِحْ بقدرتِكَ ما فسد منّي، واغفرْ لي خطيئَتي. إنّكَ أرحمُ الراحمين.

أللّهمَّ، يا راعيَ النفوس الأزليَّ، التفِتْ إليّ، أنا عبدكَ المسكين، وأنِرْ لي الدربَ والمصير.

وضعَتْ وجهَها بينَ كفّيها وبكتْ، بكتْ ذنبًا أليمًا وشوقًا لرجلٍ خرافيٍّ، منْ قصص العشق أتاها. قبلَ ذلكَ اليوم، كانَتْ تحلم بغير توقّفٍ، أراها اليومَ جسدًا بلا روحٍ. تبدّدتْ آمالها واجتاحتها كآبةٌ غامرة، ما كانَتْ تعلمُ أنّ الحبّ قدْ يهزمُها.

ريفُ لا تحبُّ أنْ تقصَّ حكايتها على أحدٍ. لملمَتْ جراحَها وغادرتْ على متن التوبة والغفران. نسجَتْ لحياتها الوحدةَ والعزلة. إنّها تذوبُ كشمعةٍ بعدما كانتِ الضوءَ الذي ينيرُ عتمة بيتها وسكونَهُ.

ركنْتُ سيارتي في الموقف المخصّص للزوّار. قرعْتُ جرسَ المنزل. فتح لي أوكتافيو الباب. عبرْتُ الحديقة المُهمَلة والورود الذّابلة التي كانتْ يومًا مُدلَّلةَ ريف، نظرْتُ إلى تلك الشتول اليابسة. اعتصرَ قلبي أسفًا حينَ تذكّرْتُ وجه ريف. كان يجنّ جنونها إذا تأخّر jardineiro ، أيْ مُنسِّق الحديقة، وتُؤجّل أيَّ عملٍ كي يتسنّى لها سقيُ الحديقة وتعشيبُها.

دخلتُ المطبخ ووضعْتُ الركوة على الغاز. طلبْتُ من العاملة إيقاظَ ريف، فقدْ كانَتْ اعتادَتِ النوم وتناولَ حبوب الأعصاب، وقلتُ للدّكتورة Márcia De Paulo أشهرِ طبيبة نفسية في Camboriú: «اقتربي وانظري كيف نُحضِّر قهوتنا اللّبنانية. أرجو أنْ تعجبَكِ، وأنْ تتحمّلي طعمَها الثقيل». ضحكَتِ الدكتورة، ولعلّها ضحكةٌ غيرُ متكلَّفة، ولعلّي أحرجْتُها بذلك؛ فالبرازيليونَ معتادونَ القهوة الخفيفة الحلوة المذاق. دخلْنا غرفة الجلوس وعدتُ أحدّثها عنْ ريف: «ذات واحدٍ وثلاثين عامًا، مفعمة بالحيوية والنشاط، أنيقة المظهر، أخّاذة بجمالها وجاذبيتها. ريف طَموح وجريئة، الكلّ يحبّ روحَها المَرِحة

وتفاؤلها الدائم. زوجُها رجلٌ مُميَّز، لا يشرب الخمر، لا يعاشر النساء، ولا يخرج ليلًا من دونِها. ربّما يبالغُ في عملِهِ، كأغلبِ الرجال. أولادُها الثلاثة، وبخاصّة ألين razão da vida dela، هم سببُ حياتها، كما كانَتْ تقولُ دائمًا. كانَتْ تعيشُ هناءً واضحًا لطالما أثارَ حسدَ النساء الأخريات اللّواتي كنّ يعتبرْنَها محظوظةً، تعيشُ بسلام. كنْتُ أشعر بأنّ الروتين يُتعبُها، رغمَ محاولاتها الدؤوب لتغيير نمط حياتها مع زوجها. أيامُها متشابهة، كأنّها في خريفٍ أبديّ... عامان كانا كفيلينِ بتبديل حالها. راحتْ تبحثُ في مُدُنِ الممنوع عن ألوانِ حاضرها وظلال ماضيها... لمْ تجدْ شيئًا سوى طرقٍ واسعة من الضياع والظلمة القاتلَينِ. ريفُ دخلتْ في صراع مع الزمن، وأضحَتْ أكثر هشاشة منْ قدَح نبيذ قابلٍ للكسر. ما عادتْ تسمع من تلك الأمواج إلا الألحانَ الحزينة، بعدما كانتْ لها مصدرًا للتّأمّل والأمل.

١٤ شباط ٢٠٠٥، الساعة الحادية عشرة صباحًا.

الشمس تسدل أشعّتها على شاطِىء Camboriú بسلاسلَ ذهبيةٍ مُرصّعة بألوان الأجساد العارية المستلقية على الرمال. توبلس، سترينغ، بيكيني... كتمَتْ أنفاسَ البحر وأمواجِهِ، غيرَ مبالية لأمرِ أحدٍ، تملأ الدنيا حبًّا وجمالًا وحرّية.

ينتشر البرازيليون على طول الشاطىء، تترنّح أجسادُهمْ على وقع موسيقى السامبا المنبعثة من السياراتِ المتوقّفة على الكورنيش، تتمايلُ النساء بخصرٍ منحوتٍ ومؤخّرةٍ تختصر رغبة الكرة الأرضية.

١٤ شباط عيدُ الحبّ في العالم كلِّهِ تقريبًا، إلا في البرازيل والبرتغال، كحال عيد الأم أيضاً؛ فهو في لبنان ٢١ آذار، أمّا في البرازيل فالأحد الثاني منْ أيار. وعيد الحبّ هنا في ١٢ أيار، لا في ١٤ شباط،

ولكنْ لا بأسَ إنْ كنّا، نحنُ المغتربينَ، نعيش الانتماءَ انتماءَينِ؛ فلا ضررَ أن نعيش العيد عيدَينِ.

استيقظْتُ في ذلكَ اليومِ المشمسِ من صيف البرازيل، على وقع غيمةٍ سوداءَ حطَّتْ بثقلِها على وطني.

كنْتُ قد طلبْتُ فنجان قهوتي وتوست مع اللّبنة من عاملة المنزل، وخرجتُ أتأمّل حديقتي وأزهارها، أضع يدي على شتلاتها تمامًا كما تمسّد الأمّ جبين ولدها، أتنفّس رحيقها، أداعب أوراقها، أكلّمها وتفهمني .وفي الواقع، كنتُ أنا مَن أستمدّ منها الحنان والطاقة، أشاركها آمالي، أفكاري وحتّى أحلامي. ارتشفتُ قهوتي واستعرْتُ من أزهاري رحيق يومي، وإذ بالهاتف يرنّ!

توّقعتُ أن تكون ميراي، صديقتي منذ وطأتْ قدماي البرازيل. لا بدّ أنّها وفضولَها في بحثٍ عمّا أحضّره لعيد الحبّ.

- هل تشاهدينَ التلفاز؟؟

إنها حقًّا ميراي. ولكنّ في صوتها غصّةً وانفعالاً!

- كلّا، ما الأمر؟ أشعر برجفة صوتكِ!

- اغتيل الحريري!!

كاد الصمت يغزو دقّات قلبي، انتابتْني قشعريرة في جسدي، وضاق فيّ النفَسُ.

أسرعتُ إلى غرفة الجلوس، أردْتُ تشغيل التلفاز، فأطفأْتُهُ، وعدْتُ وأدرتُهُ ثلاثَ مرّاتٍ حتّى نجحَتِ المحاولة. حالة من الذّهول أصابتْني. مشاعر عارمة منَ القلق، الخوف، الحزن والترقّب.

«لماذا؟» كان السؤال الأوّل الذي بادر ذهني. مَن المستفيد؟ ولمصلحة مَن؟ هل هُوَ إعلان حربٍ على لبنان؟ يا لَهول المشهد! ويا لَفظاعة الآتي!

تسمّرتْ عيوننا على التلفاز ليلَ نهارَ. أتى عيد الحبّ هذه السنة بهدية الكره والإجرام. سُقيَ تراب وطني بدماء رجلٍ حفر للإنسانية مهدًا، وللعلم نورًا. هوَ من خير الرجالاتِ التي وضعتِ الحجر على الحجر وبنتْ للوطنية مقياسًا منَ العطاء والتضحية.

رحل وظلمة غيابه ترنّحتْ بين نبراس نهجه وتجّار دمه، يزرعون الرحمة فتنة، والمحبّة كرهًا. رحل لتُطبَعَ أجندة جديدة لشرق أوسط جديد وُلِد من رحم ليلى ونيوب ذئبها.

تمرّ السنون واغتيال الحريري ما زال يرمي بذيوله على وطني والمنطقة، مِن فوضى واضطرابات سادتِ البلاد، إلى أحداث ساهمتْ في تعميق الخلاف، فاغتيالات لوزراء ونوّاب وصحافيين، ثمّ حرب تمّوز الهمجية، مظاهرات واعتصامات اكتسحتِ الساحات...نفقٌ مظلمٌ أُدخِلَ وطني به.

منذ ذلكَ الحين إلى يومنا هذا، يترنّح وطني بين نار الفتنة وهول الإرهاب والأمل بقرار حرّ وأجندة وطنية داخلية. ففي عالمنا العربي، ترتفع نسبة الأمّية وترتفع نسبة الولادات على صيغة «بْيِجي وبْتِجي رزقتو معو»، وبالتالي ينعدم الوعيُ وتنعدم الثقافة، يتفاقم الفقر ونحصل على أسوأ المعادلات: الجهل .

إنّ بيئة جاهلة لا بدّ أنْ تكون أرضًا خصبة للفتنة.

وتستمرّ المهزلة... ٦ تشرين الثاني ٢٠١٤. هل مدّد النواب لأنفسهم؟ أضحكُ ضحكةَ تململٍ: «صدّقْ أوْ لا تصدّقْ! نعم. نوّاب الأمّة انتخبوا أنفسهم، وانتخبوا لي معهم وهمًا، رسمتُ على خارطته قصّتي مع المجهول».

كنتُ قد وضعتُ خططي كاملةً من أجل تقضية يوم مع أولادي في مدينة Beto Carrero وهي مدينة للألعاب تبعد سبعةٍ وثلاثينَ كيلومترًا عن البيت. استيقظت باكرًا لتحضير ما يلزمنا في رحلتنا، وإذْ برسالةٍ من عاصي: «كنتُ أفكّر فيكِ! أحيانًا تمنحكِ الحياة فرصة جميلة مع أناسٍ ترتاحينَ حينَ تحادثينهمْ».

- وأنا أرتاح عندَ محادثتكَ.

- وبعد؟

بدا لي كمحقّقٍ يستنطق ما يجول في داخلي، وذهبَ بي التفكير إلى منحًى آخر. لكنّني أجبْتُ وكأنّني أهرب من دربٍ لا أعرف آخره. أجبته: «أرتاح ونقطة على السطر».

- ما يهمّ هو ما بعد النقطة.

الصفعة الأولى لعقلانيتي! شعرتُ بها تهزّني كزلزالٍ. بقيتُ مذهولةً للحظاتٍ وكأنّ الحياة أخذتْ بيدي وهي تقول: «هلمّ معي إلى المجهول!»

إليكمْ بداية قصّتي مع المجهول.

في متابعتي اليومية لأخبار السياسة في وطني والعالم العربي، استوقفتْني رنّة صوته وروعة لهجته. للوهلة الأولى، اعتقدتُهُ غيرَ لبناني، فلهجتُهُ مزيجٌ من الفلسطينية واللّبنانية والأردنية، ذاتُ أَنَفٍ يوحّد- لو شاء- ما تفرّق من الأقطار العربية. تَراه يتنقّل في تحاليله بين عواصم العالم أجمع، كطائرٍ حرّ لا تحدّهُ سوى حرّية الآخرين. استمعْتُ إليه بفرحٍ، ولا أعلم السبب. لعلّه من الأشخاص الذين يمدّوننا بالطاقة الإيجابية، أو لعلّ لياقة حديثه وأسلوبَهُ في التحليل يشدّانكَ ويزوّدانكَ بالمعلومات القيّمة.

كنّا قد تواصلْنا للمرّة الأولى، حين كتب مقالتهُ الشهيرة «صباح التمديد يا نوّاب الأمّة». فكتبتُ على صفحتِهِ بأحرفٍ غاضبة: «إنّني، للحظةٍ، تمنّيتُ أنْ أعيشَ بصحراءَ جرداءَ، تهبّ عليّ عاصفة هوجاء تغطّيني، تجرفني، فتغسلُ وهمًا يسكنُني اسمُه لبنان. ويلٌ لهم من قسوة التاريخ، إنْ كُتِبَ بضميرٍ». أجابني: «ما إلِكْ الا صحراء الربع الخالي». ضحكتُ وسعدتُ لردّهِ الظريف. سألني أينَ أعيش، أجبتُه:

- البرازيل، ولاية سانتا كاتارينا (Santa Catarina). وأنتَ، أستاذي، أظنّكَ تعيش في الطائرة، كلّ يوم في بلد.
- صحيح. عملي يفرض عليّ السفر الدائم. وفي المناسبة، يروقني ما تكتبينَ من تعليقاتٍ على صفحتي.

شكرتُهُ وأثنيتُ على طريقة تعاملِهِ وتواصُلِهِ مع متابعِيهِ.

صِرْتُ من المتتبّعين لكلّ تحاليله السياسية، وكأنّني، بذلك، أتقمّص فكرَهُ وكلامَهُ وتوجّهَهُ السياسي والوطني. فكتبْتُ:

«لبناني الحبيب، اختصَروا جبالكَ الشامخة بأرض قاحلة غذاوها الفتنة والترهيب، باعوا ربيعكَ الخلّاب، وأغرقوا مجدَكَ بطلقة نارٍ من أخٍ لأخيهِ وصرخةِ مُسلِم ترنّم بكاءَ المسيح.

محمّدُ، أتبكي وطني؟ عيسى، أتضيءُ لأجله الشموع؟ إنّ شعبي لم يزلْ غارقًا في مَواحِل الفتنة».

أجابَني على صفحتي الخاصّة: «شويّةْ فرح يا بنت، الدنيا عيد».

أيّ عيدٍ، سيّدي، وجيشي يُقتَل وشبابنا يُذبَح، على مرأى العالم وهمْ يتفرّجون؟ أيّ عيد وفقراء وطني يلتحفون الذّل والعوَز؟ أيّ عيدٍ وحكّامنا يعبثون في الأرضِ فسادًا وهدرًا؟

خجلتُ من يأسي وأجبتُ: «معكْ حقّ، عذرًا. ولكنْ يستفزّني الظلم».

- يومًا ما نتحادثُ في كلّ هذا. يسعدني أنْ نلتقيَ حينَ تأتينَ إلى لبنان.

- بكلّ سرورٍ، أستاذي.

كان عاصي يعرف السياسة وقذارتها، اتّخذ من القلم سلاحًا ومن الصحافة منبرًا. يتعاطى مع الشاشة والمُشاهد مِنْ خلفها بكلّ رقيّ واحترام.

في إحدى المرات، طلبتُ إليه أن يزوّدني برابط مقابلته التلفزيونية، فبادلَني بردّ طفولي: «لا ما بدّي، دَبْري حالِك». هل يتحدّاني؟ «دبّرت حالي» فبعد ثوانٍ أرسلت إليه برابط المقابلة. تحدّيهِ المباشرلي على هذا الشكل المستفز أيقظ غروري الأنثوي، على الرغم من أنني كنتُ أدركُ أنّ حججي غيرَ المقنعة سوف لنْ تمرّ على رجل أَتْقَنَ فنّ التحاليل بجدارة وحنكة، مرورَ الريح.

حاولْتُ تهدئة نفسي، أمرْتُ جسدي بأن يسترخيَ، وسألتُ قلبي: ما بالكَ؟ هل مللتَ ذاك النفس المثير؟ ثلاثَ عشرةَ سنة من الزواج التقليدي، ولكنّه جميل. ثلاثة أولاد ثمرة حبّ عقلاني، ولكنّه عاطفي.

ابنة ثمانيةٍ وعشرة أعوامٍ، حالمةً رومانسيةً، إنّما ثابتة الخطى، تعرّفتُ إلى أمينٍ، في منزل صديقتي نيفين، حينَ كان في زيارته الأولى إلى لبنان. استغربت إتقانَه اللغة العربية رغمَ أنّه لم يدرسها، لعدم وجود المدارس العربية في مدينته. يقول إنّ أمّه كانتِ السبب في عشقه للّغة العربية، لكثرة ما كانتْ تستمع إلى وديع الصافي و فيروز، فشبّ وفي قلبه حنينٌ متواصِلٌ لمعرفة البلد الذي وُلِدَتْ به أمُّه. إلا أنّ زيارته إلى لبنان تطلّبَتْ جهدًا كبيرًا ومعالَجة نفسية لأكثر من ثلاثِ سنوات، إذْ كانَ يعاني فوبيا الطائرة.

حين دخلتُ منزل نيفين، تلاقَتْ نظراتنا ببريق لامع، شدّنا وشدّ انتباه الجالسِينَ إلينا.

- مرحبًا.
- أهلًا.
- ريف.
- أمين.
- تشرّفنا.
- بحضرتِكْ.

كانتِ النظرة الأولى ثمّ اللّقاء فالخطبة فالزواج فالسفر. كان في نية أمين البقاء شهرًا في لبنان، بيد أنّه ظلّ خمسةَ أشهر، ليعودَ بصحبةِ مجنونةٍ، ارتأتِ المغامرة وهي بعدُ غِرّةٌ.

البرازيل وجهتي إلى المجهول – المعلوم.

حطّتْ رحالي في بلاد أمريكا اللاتينية وخوفي من المجهول ينتابني: ماذا ينتظرني؟ مَن ينتظرني؟ كيفَ ومتى؟ أسئلة وتكهّنات.

الحمد لله على السلامة. المحطّة الأولى مطار شارل ديغول – فرنسا. ساعتان من الانتظار، وأقلعتِ الطائرة. إحدى عشرة ساعة على متن Boeing 777 والأفكارُ والهواجس تدور في رأسي، يقطعها لطفُ أمين من وقت إلى آخر، رغم أنّ الخوف كان باديًا على وجهه، وأنّ يديْهِ كانتا تتصبّبان عرقًا. بين الحين والحين، كان يسألني:

- ينقصك شيء؟ مرتاحة؟ حاولي النوم قليلًا. الرحلة لا تزال طويلة.

المحطّة الثانية مطار غواروليوس ساو باولو. أربعُ ساعاتٍ من الانتظار، ولكنّها مُجدِية. تعلّمتُ أولى كلماتي البرتغالية، خلال وجودنا في المطعم. تقصّدْتُ، وبدلع، أنْ أعتمد على نفسي، فكانتْ أوّلُ كلمة تعلّمتها quero água por favor أيْ: أريدُ الماء لو سمحتَ.

أقلعتِ الطائرة، وبعد ساعةٍ من الوقت، نزلْنا في مطار Itajaí Santa Catarina.

ظننتُ أنّني أخيرًا وصلتُ. يأخذنا السائق إلى نهر كبير، نقطعه بالعبّارة، والسيارةُ على متنها. ثمّ يقودنا السائق مدّةَ خمسٍ وأربعين دقيقة، حتّى نصلَ إلى Camboriú.

طريقي إلى Camboriú أشبه بشبح يسلبني موطني، بالرغم من جمال الطبيعة والبحر وشاطئه. هنا قصص وحكايات تحاكي ألَمَ الغربة ووجع الاشتياق. في انتظاري وجوهٌ رُسِمتْ عليها خارطةُ وطنٍ تُرِك عنوةً، إما هربًا من حربٍ أوْ من جوعٍ أو منْ عوز.

- أهلًا دونا ريف .

- الحمد لله على السلامة سنيورا ريف.

- نوّرْتينا!

كلماتٌ اخترقتْني كالألوان، ابتسامتي ما فارقت ثغري، كما لم تفارقْ يداي شعري الأسود، وخصلة أردْتها أن تلوّن ربيع ما كُتِبَ على جبيني.

شعرْتُ بشوقٍ أليمٍ لحضن أمّي وكأنّني أهربُ للحظاتٍ إليه. وبالرغمِ منْ تلعثمي وانقباض أنفاسي وارتجاف قلبي، بقيتُ الثابتة القوية المرحة.

غرفتي كبيرة بحجم ضياعي، ومشاعري تغلي ما بين الواقع والشوق والمجهول. حقائبُ سبعٌ وسفر مُضنٍ... لا أحتاج شيئًا سوى الاسترخاء تحتَ الماء الساخن والنوم، لأكون غدًا جاهزة، فغدًا بِدءُ روايتي.

تكاد يداي ترتعشان من كثرة التحديق إليَّ. عائلة أمين هنا كبيرة. جدّه معروف بأبي سمير، جاء إلى البرازيل في حقبة الربع الأوّل من القرن العشرين، تزوّج من ابنة عمّه التي أتتْ إليه من قريته، ورُزِق منها سبعةَ أولادٍ. أبو أمينٍ واحدٌ منهم، وهو الوحيد الذي تزوّج من لبنانية.

غصّ البيت بالأصحاب والرفاق، وغصّتِ القلوب محبّةً والوجوه بِشرًا. جميلةٌ أُلفتُهمْ، ولكنّها بالطبع لا تخلو من السين والجيم و«شْوَيْ ناصحة، nãoجسمها حِلو وْلُوْ، سَمْرِتا حِلوِي، إنّو إيه بس بياخُدْ أحلى». تمتماتٌ تكاد تُفصّل حتّى قياسَ صدري، كما لو أنّني مُنتَجٌ جديد أو «موضة» جديدة.

ما زالَ البرازيليون يسمّون اللبنانيين بالتوركو «Turco»، نسبة إلى الهجرة القديمة التي كانتْ تحمل جواز السفر التركي، أيامَ الحكم العثماني. أكثرُ المهاجرين استقرّوا في ساوباولو، وريو غراندي دو سول وولاية بهية. يقولُ أمين إنّ جدَّهُ كان أول الواصلينَ إلى ولاية سانتا كاتارينا، استقرّ أوّلًا في مدينة صغيرة تُدعى بيغواسو (Biguaçu) ثمّ في مدينة فلوريا نابولس الجميلة، حيثُ وُلِدَ والد أمين. أما جدّه، فقد عمل في قطاع الزراعة، لكنّهُ لم يجنِ ثمار تعبه، فقرّر الانتقال إلى سانتا كاترينا. وبعد عناءٍ، وبفضل جهوده المضنية، افتتحَ متجرًا صغيرًا لبيع الخُردَوات. بدأتْ أوضاعُهُ تتحسّنُ شيئًا فشيئًا، فتوسّعتْ تجارتُهُ. تملّكَ مخزنًا ثمّ آخر ثمّ عددًا منَ الأبنية، وبفضلِ عمله الدؤوب، أصبح اسمُهُ منْ بين أهمّ الأثرياء البارزينَ، وصار صاحب نفوذٍ كبيرٍ في المدينة. اتّخذَ جدُّ أمين قرارَ توزيع ثروته على أبنائه قبل مماته، فكانتِ الحصّة الأكبر لوالد أمين، لكونه الوحيدَ الذي أفرح أباهُ بالعودة إلى حضن الوطن والزواج من لبنانية. ولعلّ هذا هو السبب الذي يجعل

العائلة تتصرّف بنوعٍ من الكيدية مع حماتي، مع أنّها تملك قلبًا كبيرًا، وأنّها وقفتْ إلى جانب زوجها وإخوتِهِ في جميعِ مراحل حياتهم، حسبَ ما أخبرني أمين. بعد وفاة الجَدّ، ازدادتِ الخلافات بين الأبناء، ليتفرّقوا بعدها بينَ ولاية ساوباولو وولاية بارانا وسانتا كاتارينا.

يُقال إنّ بذورَ الخلافات العائلية تنتقلُ بالوراثة، ولكنَّ أمينًا وإخوته، إلى اليوم، يملكون منَ التعاضد واللّحمة ما يكفي أجيالًا. إلا أنني أشعر بالخوف، أحيانًا، من إنْ يُعيدَ الدهرُ صروفًا ولّتْ، كوني – كما أمّه – اللّبنانية الوحيدة بين عائلة أمين. حتّى أختُهُ الوحيدة تزوّجتْ من برازيلي، وأخوه وليدٌ على عتبةِ الزواج منْ شيلا، حبيبته البرازيلية.

أنْ تعتادَ الوجوه والقصص ليس بالأمر الهيّنِ، والأصعبُ أنْ تعتادَ الغربة التي تغرز أظفارها في صميم فكركَ وانتمائكَ. تنهش لحمكَ شوقًا لأرض تنبتُ، كلّ يومٍ، وجعًا.

لبيروتَ المثيرةِ كعطر امرأةٍ يطاردُكَ أنّى حلَلْتَ.

لبحرٍ وجبلٍ جرعَا مرّ الكأس وما سَكِرا.

لجنوبٍ رسمَ وجهًا للكرامة والعزة والكبرياء، لا توأمَ له.

نتنفّسُ، كلَّ يوم، حنينَ الوطن... باتَ في لاوعينا! نتذوّقُهُ، كلّ صباحٍ، في حُلوِ قهوتنا، وننسجُهُ على أبداننا قشعريرةً مع كلّ لحن وأغنية.

هنا مهاجرونَ وهناك مغتربونَ... تضيع المواطنية في أتون الغربة وزواريبها. تُرسَم وجوهنا بألوانِ الانتماءات وتعدّدية الهويات التي قد تُنتِج شخصية ممزّقة، وحيدة، مبعثرة، وقدْ تفتحُ لشخصيةٍ أخرى طاقة فرج من الإبداع. هو ليس شعورًا بالتخلّي عن الذّات وعن لغتنا وثقافتنا وتقاليدنا، بل هو عودة إلى الذّات المعجونة بالضياع: «لبناني أنا والبرازيل موطني؛ برازيلي أنا ولبنانُ جزءٌ من ذاتي».

يتجذّر الإنسان بتراب البلد حين يكون مصدرَ خير ورزق له، يحضنه بيدين دافئتين، يشرّعُ له الأبواب، ولكنْ تهزّه رياحُ الوطن الروحي هزًّا، فيعود إلى كنفِه ضعيفًا، دامِعًا، لأنّه الأبقى والأرسَخ.

الوطنُ ليسَ ملكية فردية؛ الوطنُ حبٌّ سرمدي للجميع، سفينة نجاة يقودُها نوحُ القانون. ليتنا حملْنا سلاح الوحدة بدلَ الرصاص، ليتنا استخرجْنا الألفة والمحبّة بدل النفط، ليتنا استعملْنا ثروتنا لشراء الحياة، لا لشراء الإنسان.

تخاذلُ أمّتي هو المسمارُ الذي صُلِب به المسيح، والسيفُ الذي غُدِر به عليّ، والخنجرُ الذي طُعِن به عُمَر.

انقساماتنا سكّينٌ غرزَتْ في خاصرة التاريخ. أرضي لوحة رُسِمتْ أمجادُها بدماء أبطالها، ولكنّها هَوَتْ أمام التشرذم والتقسيم. تجزئة المُجزَّأ هو الهدفُ المميتُ، طائفيةً كانَتْ، أمْ عرقيةً. ما يُريعُهمْ خطرُ القومية العربية عليهمْ، وعودةُ شعار الأمّة العربية. جهدَ صنّاع التاريخ والاستعمار بصناعة الخرائط وتقسيم البلاد، وضعوا الخطط، استغلّوا الربيع، ودعموا التطرّف. ثوراتٌ أصبحتْ قميصَ عثمان، وربيعٌ ألوانُهُ دم مجبولٌ بالتراب.

في عينَيْهِ دعوةٌ لشيءٍ ما. أستبقُ الموضوعَ وأقول :

- تصبح على خيرٍ. سأخلد للنّوم.

يلتقطني بلطف ويطلب - كما لو أنّه يستأذنني - ممارسةَ الجنس. أضحك، وأكادُ أقول: «أيّ جنس يمارَس باستئذان؟ أُطرقْ بابي، سيّدي، بالرغبةِ واللّمسات. انظرْ إليّ بشغفٍ ولهفة، فهذا حسبي لممارسة الحبّ».

أسكتُ وأنظر إلى الجهة الأخرى، لعلّي أشتّتُ تفكيرَهُ. يشدُّني إليْهِ بقوّة ماردٍ هائجٍ، يعصرُني بينَ يديهِ، ونارُ صدرهِ تلهبُني. يقودُني إلى السرير، وما هيَ الا دقائقُ معدوداتٌ حتّى اعترَتْ جسدَه هزاتٌ ساخنة، وغطّتْني رعشةٌ، منه، جارفة .

أوشكتُ أنْ أشعرَ بشيءٍ، ولكنَّهُ لمْ ينتظرْ. كالعادةِ، هبَّ مستعجلًا، كأنّما النومُ سوف يهربُ منه، إنْ أطالَ الغرقَ .

اغتسلْتُ في غرفتي، بماءٍ مثلها باردة، وشعرْتُ بالفخر لِمَنْحِه اللّذة.

كثيراتٌ هنّ النساءُ اللّواتي يصتنعْن النشوة. لجسد المرأة لغةٌ عُلوية، عليها تعلّم أبجديتها كي تصلَ بها إلى بوصلة المتعة غير المحدودة. جسدُ المرأة نايٌ رقيقة، مع كلّ نفخةٍ ولمسةٍ، ينسدل على مساماته صافي النشوة، عذبُها. ولذلكَ، هيَ بحاجةٍ إلى عازفٍ محترفٍ ذي نفَسٍ طويلٍ، مجرَّدٍ من قيود الرجعية، مُعتَقٍ من التقاليد الهمجية. الجنسُ بدون نشوةٍ صيفٌ بغيرِ سمَر، شتاءٌ بغير مطر؛ فإنْ فقدَتِ المرأة نقاءَ الصيف وجموحَ الشتاء، أصبحتْ كبائعةِ هوًى حزينةٍ أو كزوجةٍ منسية مُهمَلة.

في يوم ممطر على شاطىء Camboriú، ذهبت برفقة صديقتي لنمارس رياضة الجري. ليس المطر في كامبريو معيقًا لمنْ يهوى السير؛ ترى الجميع ملتحفًا غطاءً من النيلون، بلونٍ يعكس شيئًا من داخله، ويهرول بغير مبالاة. ولكن، أينَ خطوط الأجساد وانحناءاتها تلهب قلوب المارّة؟

أضحك بألم وحسرة مع صديقتي حين أتذكر شواطىء لبنان. للفقير هنا حقٌّ، باسم الإنسان والقانون والطبيعة، أنْ يتمتّع بالأملاك العامة دون تمييز، لا بلْ تعمل الدولة ليلَ نهارَ لتحسين حياة المواطن وتعزيز حقه بالعيش الكريم. أما وطني الذي كان يومًا مهدًا للحضارة، فنجده أمام أبشع الخروق. ليس بوسع أيّ مواطن الوصولُ إلى الشاطئ، من جبيل إلى صيدا مرورًا بجونيه والدامور والجيّة، دون دفع «الدخولية» لحيتان البحر طبعًا!

إن الأملاك البحرية العامة في لبنان تحولتْ إلى أملاك خاصة تقاسمها أشباه الرجال المدعومين من سياسيين وأحزاب سياسية، باتوا فوق القانون وفوق الدولة.

ألتفتُ إلى ميراي وأسألها بحرقة: «أيّ أمٍّ تلك التي تحرم أبناءها عطفها؟»، تجيبني ميراي بنَفَسٍ متقطّع، إذ ليست معتادة الجري السريع: «ماذا تعنين؟»

- إليكِ ما تفعله دولتنا المصون بنا... لو خطر ببال «معتّر» النزول إلى الشاطئ، فله بالمرصاد ألفُ رادِع. أينَ للفقير مَنْ يسانده في الدفاع عن أبسط حقوقه؟ هذا جزء صغير من وجعنا اليومي.

سبعة كيلومتراتٍ ضفاف الشاطئ الذهبية، مياهه الزرقاء صافية كالسحاب، تحمل وشوشات الجالسين، أو العابرين رصيفه. رجل أربعيني يغازل زوجته - أو ربما خليلته - يشتري لها الـذُّرة من الكيوسك، تلك الأكواخ الصغيرة المنتشرة على الرصيف، تزنّر خصرَ الشاطئ بأخشابها البسيطة النظيفة المنتظمة. وعلى بُعدِ كوخٍ عنه، شقراءُ تتناول الـ Churros (عودٌ من العجينة المحلّاة بالكرامل والسكّر والقرفة)، أزاغتْ بقدّها الأهيفِ عينَيِ الأربعيني.

الحياة هنا لا تهدأ؛ شارع أتلانتيكا يعجّ بالعالم والمطاعم، آلاف الطلّابِ من الجامعات القريبة تأتي إلى هنا لإحياء حفلاتها وتخرّجها، وكامبريو، في الصيف، يدخلها ملايينُ من السيّاح، من مختلف البلدان والمقاطعات.

- ميراي، كم من اللبنانيين يأتون صيفًا إلى كامبريو! «ولَوْ، شو هالصنّارة المصدّية الحاملتيها»؟

تقف ميراي لبرهة، تُلقي يدها على جذع الشجرة ويعبق وجهها احمرارًا وضحكًا، ثمّ نستريح قليلًا على المقعد الخشبي المجاوِر. نطلب من بائع الكيوسك اثنين من جوز الهند، نشرب ماءهما، ثمّ نعيدهما إلى الشاب، ليفتحهما ونأكل محتواهما.

وكم كنّا، أنا وميراي، نلجأ إلى شاطئ تاكوارينيا، هربًا من صخب أتلانتيكا. كان يغريني الهروب إلى حيث أجرؤ أن أحلمَ، وأسافرَ وأتيه. تاكوارينيا - والحقّ يُقال - لوحةُ فنّان مجنون يعبثُ بالخطوط والألوان كما يهوى. لا أدري لما كنْتُ أشعر أنّه، في كلّ مرّة آتي إليه، يأخذ شيئًا من ملامحي، يلبسُ تفاصيل هواجسي، ويسكن ذاكرتي. على الرغم من أنّه لا يشبه مدينتي بشيء، إلا أنّني كنْتُ أسمّيهِ بيروت. الله صاغ تفاصيله بدقّةٍ واحترافٍ: كريستالَ مياهه الشفّاف، ذَهَبَ الرملِ وانسيابَه، الجبالَ التي تحيطه كأمٍّ تلفّ ذراعيها على طفلها تحميه. هناكَ كنّا نستعيدُ هدوءَنا وعافيتنا، وكنتُ أستعيدُ طفولتي ومدينتي.

- أتعلمين يا ميراي؟

يمينًا تلفّتُّ وتنهّدتُ بعمق...

- أتعلمين أن عزائي الوحيد في غربتي هو هذا الشاطئ؟ أحيانًا

كثيرة، أرمي فيه وله كلّ آلامي وأشواقي، أنظر إليه بتعجّبٍ من كبر صبره، من سعة صدره... كيف له أن يمتصّ همومًا بحجمه؟ بيني وبين البحر قصة عشقٍ محرّمة؛ على قدْر حبي له، أخاف الغوص فيه، أخاف أسراره الدفينة وأخاف غضبه. عندما يضيق صدري شوقًا لوطني وأهلي ورفاقي، تجدينني أمام سحره، ألقي بهمسٍ كلّ ما يختلجني من آهات وأشجان.

استدارت ميراي بسرعة وأوقفتني من كتفي وهزّتني، وهي تصرخ:

- وجدتُها! وجدتُها!

بضحكةٍ ساخرة، سألتُها:

- ماذا وجدتِ يا أرخميدس؟

قالت: «ريف، لمَ لا تدخلين الجامعة هنا وتَدْرُسين؟ فأنتِ مثقّفة، تعشقين المطالعة والعلم».

أجبْتُ بسرعة اليائس: «أيّ جامعة يا عزيزتي؟»

- جرّبي. لن تخسري شيئًا .

كانت نصيحة ميراي شعلة الأمل لمستقبل رسمْتُهُ بجدّ ونشاط. درسْتُ التغذية في جامعة Vale do Itajaí، وهناكَ تعرّفتُ بحقّ إلى الثقافة البرازيلية وطيبة شعبها وجمال روحه. ما يعرفه العالم عن البرازيل هو نقطة في بحر الحقيقة. أن تختصر ٢٠٠ مليون نسمة بلعبة كرة القدم أو رقصة السامبا أو الكرنفال، فهذا ظلم لأسطورة البرازيل تاريخًا وقدراتٍ وجمالًا.

قبلَ أن أتعرّف إلى عاصي، كنتُ أنتظر نوم الأولاد كي أحظى بوقت للقراءة، طبعًا إن لم تقيّدني ارتباطات أمين الاجتماعية. غالبًا ما كنت أجلس وحيدة في غرفتي، أقرأ، وأستمع إلى الموسيقى، فليلُ أمين موصول بنهاره، بحكم مسؤوليات عمله. هواياتنا مختلفة: أنا أحبّ الرياضة وهو لا يعرفها، بالرغم من أنه وُلِد في البرازيل. أنا أحب السفر وقلبه يهدر مع هدير الطائرة. كان أخوه وليد هو المسؤول عن السفر وعن الزبائن خارج البرازيل، حيث إنّه يدير شركة لتصدير المواد الغذائية إلى إفريقيا، وكان أمين هو المسؤول عن سلسلة المطاعم في كامبريو وفلوريا نابولس (Florianópolis) وكورتيبا (Curitiba)، لأنه يستطيع التنقّل بسيارته بين هذه المدن. أنا أحبّ الطبيعة والشمس والبحر، وأمين، أحيانًا، لا يرى النور لساعاتٍ وهو يتتبّع البورصة وحالها. هو يعيش في عزلته، وأنا أعيش بين قصصي ورواياتي، لا يجمعنا سوى المناسبات الاجتماعية، وطاولة الطعام، وسرير الواجب.

استيقظتُ من نومي، ذات أحدٍ مشمسٍ، وبداخلي شعورٌ غريبٌ يبعث على السعادة، يشدّني للخروج إلى حديقتي، لرؤية أزهاري، للّعب مع ابنتي ألين، وربّما للرّقص. تركتُ سريري إلى المطبخ، وقبل أن أطلب قهوتي، حضنتُ ابنتي، لاعبْتُها، وخرجْنا معًا إلى الحديقة. ألقيْنا التحية على الورود والشتول، سقينا التوليب والغاردينيا، وعدْنا

إلى الداخل. وضعْنا «بزر العدس» في وعاء مع القطن، وتركناه في الشمس، وشرحْتُ لها كيف تصبح براعمَ بعد ثلاثة أيام.

قبلُ، كنتُ أستيقظ حزينة، غيرَ راغبة في الكلام أو فعل أيّ شيء قبل أن أشرب قهوتي. القهوة ملاذي في صباحاتي، أصبّحها لتصبّحني.

يسكن الحزن بيتنا أحيانًا، دون أن نعيَ ذلك. تولَدُ العصبية من أتفه الأمور ونفقد الرغبة في الحياة تدريجًا ونحن ما زلنا نعتبر هذا أمرًا طبيعيًا. بعضنا يسمّيه «stress» وآخر يسمّيه روتين، غير أنّ جميع هذه المصطلحات ما هي إلا لإبعاد شبح الحقيقة. وفي النهاية، نصل مرحلةَ الاكتئاب ونبدأ بتناول تلك الأقراص اللّعينة.

الحلّ في أجمل خلق الله: الطبيعة.

إنّ التأمل في الطبيعة لَهُوَ أنفع الجرعات المهدّئة، التي تجعلك تشعر برحمة الخالق وقدرته على بعث الأمان والسلام في داخلك. هذا ما كانتْ تقوله دائمًا مدرّبة الريكي (الريكي علم يعتمد على الممارسة الروحية التي تقوم على الاعتقاد بوجود طاقة إيجابية نستمدها عن طريق التأمّل وحرارة اليدين). ربّما طاقتي اليوم هي من تأثير صف التأمّل (meditação) نهارَ أمس. كنّا قد ذهبنا، أنا ومجموعة من روّاد صفّ اليوغا والتأمل، إلى أعلى الجبل في منطقة Barra sul. وصلنا إلى المحطة المؤلفة من ثلاثة طوابق، التلفريك وسيلتنا وقمة الجبل وجهتنا. تنسرح أمام نواظرنا، ونحن معلّقون بين السماء والأرض،

لوحة فسيفساء طبيعية لملتقى البحر مع نهر كامبريو. وعلى امتداد ذاك الملتقى، شريط من المباني الشاهقة المتناغمة، أشبه بنعامة تحتضن تحت جناحيها فرخينِ باردَين مرتعدَين.

وصلنا إلى بارك انيبراياس (Unipraias Parque). نزلنا من عربة التلفريك واتّجهنا إلى الباحة المطلة على شاطئ لارانجيرا. عبرنا الممرّات الواسعة بين الأشجار والغابات المحمية التي لا تزال، حتى اليوم، بعيدة عن يد الإنسان، إلا بعض التدخّلات الصغيرة التي، إن دلّتْ، فهي تدلّ على اهتمام البلدية بهذه الثروة الطبيعية الثمينة.

فرشَ كلٌّ منّا حصيرتَه المخصّصة للتأمّل، واتخّذ الوضعية المناسبة. أسندْتُ ظهري إلى جذع شجرة ووجهي إلى الساحة الكبيرة في وسط الغابة. أمام ناظري سور يطل على شاطئ لارانجيرا.

عند المغيب، يكسو السماءَ الزرقاءَ احمرارٌ شفيفٌ، تبدو كامبُريو كعاشقةٍ تلبس الأحمر البرتقالي وتتهيّأ لظلال المساء وظلام الليل. تأمّلتُ عظمة الكون الذي خلقه الله لنا، استسلمتُ لتأمّلٍ عميقٍ. غدوتُ للحظة في عالم آخر، أو هكذا ظننتُ. توغّلت في أعماقِ ذاتي، ألفيتُ تلك العيون الحوراء البنّية تحدّق إليّ، أشدّ حدّة من الصقر، وكأنّها تناديني للهروب إليها، وفي غمرة انغماسي، شدّني صوت المدرّبة صاعدًا من بئر عميقة: «ريف، هل أنتِ بخير؟».

- نعم. أظنّني سافرْتُ قليلًا!

- أنتِ في نهاية رحلتكِ، عودي تدريجًا من أسطورتكِ الذّاتية.
- ما عساني أفعل لأتوغّل أكثر في صميم ذاتي؟ أشعر أحيانًا أنّني لا أعرف ما أريد!
- انصتي إلى قلبك وسلّميهِ إدارة ذاتِكِ!
- قلبي! قلبي يؤرقني ويحملني أحيانًا على البكاءِ دون سبب!
- دون سبب؟ ابحثي في زوايا عقلكِ يرشدْكِ إلى السبب! اسمعي يا ريفُ. الطريق إلى معرفة الذّات محفوفة بالمخاطر، إنّها كثيرة الطيّات والليّات، فما بالكِ وأنتِ شرقية النشوء؟ لنْ يتيسّرَ لكِ أن تعبري تلك الطريق دفعة واحدة؛ المسألة مسألة صراعٍ بين التقاليد والعادات، ويقينِنا أنّها حقيقة راسخة، لا وهم. هناك فرق بين حقيقة الشيء والحقيقة التي نريدها أو التي نرسمها على قياس رغباتنا.

شعرتُ بعمق كلامها، فنحنُ قوم مقيّدة أعناقنا بأغلال العيب والحرام. لا نستطيع التحرّك ولا رؤية الأفق البعيد. قيودُ المجتمع صادرَتْ حرّياتنا وبدّدتْ آمالَنا بالتحرر. نسلك طّريقًا عبّدها لنا رجالُ الدين والسياسة، والأبُ والمجتمع. متى يتولّد في نفوسنا طموح بنفسجة جبران؟

لم يكنْ سهلًا ألّا أفكّر بكلّ ما يحدث. أصبحتْ حياتي متقلّبة: قلق ممزوج بالفرح، سعادة تائهة في المجهول. هناءة العيش زيَّنَتْ

سنواتي السابقة، رتابتها قتلتها، أو كادت. علّمني التأمل أنْ أنصتَ إلى الأصوات الصامتة، أن أرى حسنًا في ما هو سوءٌ، أنْ أقيس الزمن بلحظةِ الحاضر، فالأشجار تتعرّى في الخريف حتّى تثمر في الصيف. لكلّ آنٍ أوان.

على الإنسان دائمًا أنْ يبادرَ إلى فهم ذاته الحقيقية، بتقبّل رغباته والتبصّر بالطيّب منها، كي ينالَ الحقيقة المجرّدة من الخيال والأوهام. إنّ المعرفة تأتينا كضوء بعيدٍ، بيننا وبينها جبالٌ ووديانٌ، لا نرى منْها سوى الظلال التي تلقيها أشعّتها. تخيّلْ لو أطلقتَ العنان لنفسكَ بالسير نحو ذلك الضوء: لا ريبَ في أنّكَ ستنبهر...ويقع الصراع: هل ما كنّا نراه مجرّدَ وهم؟ هل نحن نملك حقيقةّ الذات؟ سنتألم ونثور حتّى نواجه ضوء المعرفة ووهجه، ولذلكَ نحن محتاجون إلى التعوّد التدريجي على كلّ شيء. حتّى الحرية لا بدّ من فهم جوهرها، القدري منه والجبري. يستدعينا في فهمه لمسةٌ توازنية تبيح لنا الخيارَ بين هلاك النفس وخلاصها. حرّيتنا محكومة بمقتضيات الواقع المتماوِج والمتلاطم، والمغالاة بها أحيانًا تعتبر انتحارًا؛ فالحرّية عَدُوّةُ نفسها، إذا أسيء استخدامها. الإنسان الحرّ يدرك أنّ عليه الحدَّ من حرّيته، بحيثُ لا تتعارض وحرّيةَ الآخرين. إذًا، هل الإنسان كائنٌ حرّ؟ أسئلة كثيرة أرّقتْني الليل بطوله. قبيلَ انبلاج الفجر، تسلّلتُ في السحَر، احتضنتُ نورَ السماء ولبسْتُ ثوبَ الضباب. ومع خلود تلك اللحظة، شعرتُ بجسدي آلةً موسيقية مرهفة الأوتار، تُشَرّدُني أنامل الصباح في حقول

من المتعة والشوق. اشتهيتُ أن أرى وجهَهُ... وأنا هائمة في دوا
خيالي، أسمعُ رنّة المَاسِنجر تنتشلني من ذاك الدوار.

«كلّ عام وأنتِ بخير. علمتُ بأنّهُ عيدكِ!».

وصلتني رسالته، تبسّمتُ وأحسسْتُ بكلماتِهِ تغور في قلبي. جميل ذلك الإحساس، تلك اللهفة! لكنّها مخيفة.

تردَّدْتُ في الرد مباشرة كي لا يشعر بلهفتي، ولكنْ، دون إدراك، وجدت نفسي أكلّمُهُ:

- شكرًا. سعيدة بخبرتي التي تزداد يومًا بعد يوم، لا بعمري.

وبعثت له بذلك الوجه الخجول.

- لا مشكلة في العمر... «بيِلْبَقْلِكْ».

شهرين ونحن نتحادث تقريبًا كلّ يوم. تحادثنا بالسياسة، والموسيقى والكتبِ، وإذْ بساعاتِ اللّيلِ الطوالِ تُمسي هُنَيْهاتٍ. ما كنت أعلم أنّ ذاك الرجل اللطيف الذي يحلل سياسة العالم المعقدة وينبذ القتل والتقاتل وينشد السلام والطمأنينة، سيغدو قاتلي. عاصي، العصيّ فهمه، الغامض طبعه، العميق مَكنونه، غدا شغلي الشاغل.

غريبٌ أمرُهُ، هو يعلم أنّني متزوجة. لا بل غريب أمري، عليَّ أنا أنْ أتذكّر أنّني متزوجة! شوقي إليه صار يكبر يومًا بعد يوم. وجدتُ نفسي أنتظر رنّة الـ messenger، أتنفّس مع وصولها، كطفلةٍ تستلمُ هدية الميلاد. ألوم نفسي وإحساسي، ولكنّني لا أستطيع التوقّف.

أيّ جنونٍ هذا الذي يأخذني كلّ ليلة لأكتب إليه؟ برغم سعادتي عند محادثتي إيّاه، كان الإحساس بالذنب يكبر كلَّ لحظة، فينهرني عن البوح بالكلام الذي أشتهيه. كنتُ أودّ لو أنني أستطيع تخطّي المحظور وإعتاق جنوني.

أصبحتْ مقالاته جزءًا من صباحاتي، كلّ يومٍ أقرأ لهُ تعليقًا أو مقالًا. حتّى إنْ لمْ أجدْ جديدًا له، عدتُ إلى كتاباته القديمة. حدثَ أكثر من مرة أن عاودْتُ مشاهدة حلقاته ومقابلاته. أشوقًا أو محاولةً مني لاكتشاف سر تعلقي به؟ أهو فكره أم صوته، لهجته أم جاذبيته؟ لا اعلم! ما كان جماله آسرًا إلى حدّ إفقادي صوابي، لكنّ شيئًا ما أوقعني في الفتنة وتركني مرنّحةً في فضاءٍ من المِحَن. كان يجيد إسعادي بخفّة دمه، وأحيانًا بأسلوبه العذب. تمرّ ساعات اللّيل كمذنّبٍ هوى من فضاء بعيد، وكمْ تمنّيْتُ أنْ يطولَ اللّيل أو يأتي صباحٌ يحمل مع صوت فيروز وجهَهُ!

يتقنُ فنَّ الحنكةِ أستاذي، كما تمنيتُ أن يكون؛ فلطالما حلمتُ بأن أنتسب إلى مدرسته، أتعلّم منه فنّ السياسة و قوّةَ الحوار. ضحكته تأسرني وأسلوبه يروقني. كتب، ذات مرّة، أنّ المشكلة ليسَتْ عند الدول الغربية التي تعطينا دائمًا دروسًا في الديمقراطية والعفاف؛ المشكلةُ في أنّ أبوابنا ونوافذنا مُشرّعةٌ على كلّ ريح.

كانتْ فلسطينُ حبيبته وقضيته الأولى، فلا يترك مناسبة إلّا و يهـ
قهرها وصمودها وعزّتها، ينحني أمام أهلها الذين يقاتلون بقداسة حجرهم، وطهر أظفارهم، ونبلِ فتوّتهم. سوريا، بعينه، قلب العروبة النابضُ، يتألم لحجم المؤامرة، يكتب العراق، يخطُّ اليمن، يتأمل أمّ الدنيا مصر، يستفزّهُ الربيع العربي المزيّا بالقتل والذبح والتدمير، ربيع الفِتَن.

لبنان يسكن كلّ زاوية من فكره. آلمَني يومَ قال إنّنا شعبٌ بغير انتماء. منذُ حوالى عقدٍ من الزمن ونحن نبحث عن انتمائنا... وجدنا أنفسَنا دروزًا أو سنّة أو موارنة أو شيعة. هل أحدٌ منّا وجد نفسه لبنانيًا؟ أوّاه يا خليل حاوي، كيف نبقى تحت سقف واحد، وبحارٌ بيننا... سورٌ.. وصحراء رمادٍ باردٍ وجليد؟!

أصبحتُ أعشق غرفتي الباردة، أحسّ نهاري طويلًا وأنا أرتقب ليلَهُ. تخمد حماستي ويعصرني القلق مصحوبًا بالأرق إن لم يكلّمْني.

إنه الحبّ إذًا! لا بدّ أن يكون الحبّ.

حين يطرق بابك لا ينتظر أن تفتحَ له... يخلع قفلكَ، يجتاح قلبك، ينتزع منك جميع الخيارات، ولا يترك إلّا خيار الوقوع وأحيانًا

الضياع. كتبْتُ له مرة أنّ إطلالته الأخيرة أبهرتني، ولكنّه رجل حازم، لا يعرف الفضول.

قلت له: «ألا تريدُ أن تعرف لماذا أبهرْتَني؟؟؟».

أجاب: «لماذا؟».

أردتُ استفزازه، لعلّي أحوز اهتمامَهُ، فقلتُ:

«لن أقول. أريد استفزاز فضولك».

ضحك وردّ: «أنا دمي بارد».

وبالفعل، استفزّ صبري دون أنْ يغيظني.

كنتُ أحبّ مراوغته وتسلّطه، حين يقول لي: «أنا حرّ». كنت أضحك وأشعر أنّ ابن الخمسين ما هو إلا صبيٌّ أضاع طفولته في أتونِ الحرب.

معه أشعر بالفرح، وبحاجتي إلى دلع مثير، يقطعه عليّ إحساسي بذنب مرير.

يدور حوار عقيم بين ضميري الغافي وقلبي الصاحي، ينبّهني لتقاليدَ وقيودٍ، لحلال وحرام، لعائلة وواجب، لأخلاق وتربية، لمجتمع وويلات.

يردّ قلبي بضعف ومرارة: إنّه، ببساطة، الحب!!

الحبّ المستحيل.

- لكنّه لاإرادي!
- الطريق إليه خطير.
- لكنّه جميل.
- حبّك إبحارٌ في المجهول، إلى المجهول.
- بدأتُ أعشق المغامرة.

«لو كنْتِ هنا، عيّنتُكِ أميرةً على إحدى أجمل الولايات، أيتها الحافظة في سحرِكِ مزيجًا من العرب والإسبان».

وصلتني رسالته، وعينايَ شاردتان في أفق البحر الكبير. دقّ قلبي واعتلتْ أجزاءَ جسدي سخونة لم أعهدْها من قبلُ.

أجبْتُ: «لو أنّني أميرة الولاية التي أنتَ بها الآن لأصدرت حكمًا بسجنك».

أردْتُ القولَ: «سجنِكَ في مملكتي وبين أحضاني على شاطىء نهر بعيد عن عيون المَلأِ، أحبّكَ متى أريد وأتركك وحيدًا متى أريد، عساكَ تشعر بقساوة وحدتي وشوقي لرؤيتك».

هو رجل المراوغة، سيّدها. أظنّه شعر من خلال أسطري وحروفي بفيض لهفتي، فشرع يقاهِرني متلذّذًا. يغيب حينًا ويظهر حينًا، ليقول لي: «ليه ما حركشتي فيّي اليوم»؟ أحبّ أن أكلّمَكِ، أرتاح حين أحادثك ويغدو يومي أجمل.

ذاتَ ليلٍ كتبَ لي: «من وين طلعتيلي إنتي؟!».
أجبته: «من سَما ما إلها حدود، من قصص ما إلها وجوه».
- وأنتِ أجملُ القصص!
- وأنتَ حلم جميل مرعب، ليتني لا أصحو منه!
- كم نشبه بعضَنا! أرى حروفَكِ تبوح بذلك.
- إنّ حروفي من أبجديتكَ حبيبي!

تردّدتُ قليلًا قبل أنْ أبعثَ برسالتي... هل أقول حبيبي؟ شعرتُ بقوّةٍ جارفة تدفعني للاعتراف بأنّه حبيبي. وبعد أن طال صمتي، أجبْتُهُ: «إنّ حروفي من أبجديتك!».

أجاب وفي جوابه شيءٌ من الدلال:
- وما بال أبجدّيتك تنقصها حروف الحبّ؟
- إنّني في حلبة ملاكمة بين القلب والضمير يا عاصي.
- نحن روحان هائمتان والتقَتا. ليس بين روحَين حلبة ملاكمة؛ بينَهما شيء لا يشبهُ الكلماتِ، بينهما ما فوقَ الضمير وما وراء القلب، لأنّهما تنتميان إلى حيث لا جغرافيا ولا زمن. ستعيشينَ دائمًا بكلماتي يا ريف، تلك الكلمات التي تعيش لك وبك ومنك. كلّ الاجتياحات قابلة للصّدّ إلّا اجتياحَ الروح.

أصبحَ انتظارُهُ عادةً يومية، ورنة الـ Messenger جزءًا من دقّات قلبي.

أشعر بالعصبية إن لم يكن هو مَن يحادثني. عادةً، لا أردّ على الرسائل ولا أكترثُ للكثير من المعجبين، على أهمية العبارات التي أتلقاها، لطالما كنتُ متماسكة لا تهزّني وردة ولا شعر ولا إطراء.

وحده هو من اجتاح ليلي.

وحده هو من أيقظ غفوتي.

وحده هو من روى ظمئي.

وحده هو منْ أعاد رسْمَ حياتي.



ها نحن نتحلّق حول المائدة لتناول طعام الغداء بعد ظهر نهار الأحد، الأوّل من شهر تشرين الثاني. ضمت المائدة حماتي وكلّ العائلة. قرأتُ في هذه المناسبةُ فرصة لتحكيم العقل، والرضوخ إلى أنّ الحياة أخذتْني إلى مكان آخر وحوّلتْني إلى ربّة بيتٍ مكافِحة لها ثلاثة أولاد ومسؤوليات بيتية لا تنتهي أبدًا. كنتُ قدِ اقتنعْتُ، حتى بعدَ مثابرتي على الدراسة والتخرّج، أنّني أمّ أوّلًا وزوجة ثانيًا وسيدة مجتمع ثالثًا.

شعرْتُ بإحساس غريب يغوص في أعماقي، ضاق صدري وكأنّ صخرةً تجثم فوقه... عليّ التوقّف عند هذا الحدّ.

منذ ثلاثة أيام وأنا أقاوم شوقي إليه، انقطعْتُ عن محادثتِهِ، وغدوتُ حزينة، لا أرغب بشيء. أردْتُ أن أصمدَ ولكنّ حبّهُ يتملّكني، فالصبر محال والتحدي جنون.

هو أيضًا لم يكلّمني، ربّما تفهّم هروبي!

في جوّ مليء باللّهو والنكاتِ، عبيرُ تضحكُ وتخبرُنا عن «نهفات» زوجها، وإليانا تقوم بتقليد حماتها، ميراي تتذمّر وتأكل الشوكولا،

الواحدة تلو الأخرى، وتقول: «ليتني بصحبة رجلٍ وسيم، قوي البنية، مفتول العضلات، barriga de tanquinho (مُقطَّعِ المعدة)... مش أحسَنْ من صحبتكُن؟» الكلّ يضحك وأنا في عالم آخر، شاردةٌ لا أستطيعُ تحمّلَ عويلِ روحي. أمسكْتُ الخلوي بيدي وكتبْتُ دونَ تفكير:

«قاسٍ و متمرسٌ

متمرسٌ

متمرسٌ بالمقاهرة!».

ما هي إلا ثوانٍ وردّ قائلًا: «اشتقت إليكِ».

قبل أن أجيبَ، أضاف: «ولو أنّكْ حدّي بستِكْ مليون بوسة حتى لو ما بدِّكْ».

كيفَ لي أن أقاوم وكمْ يلزمني من الإرادة والإيمان والعفة لأقاوم؟

تذهب أفكاري بعيدًا وأتصور أشياء جنونية، كارتمائي في أحضانه مثلًا، أرفع رأسي إلى السماء شاكرة ربّي أنّه ليس أمامي.

لا تخافي ولا تجبُني، عندما يقرّر القدر إهداءكِ المتعةَ والسعادة، ارتمي في أحضانه ودعي المركبَ يسير.

قلتُ: «ساعدْني، أرجوك، أنتَ الأقوى. اشفِني منْكَ فأنتَ الأقدرُ، أنا امرأةٌ لا تعرف الكذب ولا تستطيع الخيانة».

- حسنًا، اهدئي ولْنتفقْ. أنتِ صديقتي الاستثنائية. أعدُكِ أنْ أحميَك منّي ومن حالِكِ، ولن نتكلّم بعد اليوم عن المشاعر، لكنْ لا تهربي مرّة ثانية.

دخلتْ ميراي غرفتي لتُعلِمَني بقدومِ ليلى، وبأنّ الكلّ أصبحَ هنا. وجدَتْني كطفلةٍ صغيرةٍ أتكوّم على نفسي والدمع على خدّي مجبولٌ بالكحل الأسود. شهقَتْ وهرولَتْ صوبي قائلة: «ما بالك؟ أنا حسّيت إنِّكْ مشْ مرتاحة، شو في؟ معْ أمين؟».

لا قوّة في العالم تستطيع إسكات ميراي حين تخمّن وتحلّل، فتراها تسأل وتجيب نفسَها بنفسِها.

ضحكْتُ وقلت لها: «اهدئي. لا شيء مهمّ! تأثّرتُ بصوت أمي، لمْ يعجبني. أشعرُ أنّها ليسَتْ على ما يرام. كنْتُ أطمئنّ عليها من أخي، فهي تعاني ألماً في صدرِها الأيمن والآنَ تقوم ببعض الفحوصات اللّازمة».

خرجْتُ وكأنّني إنسانةٌ أخرى. كلامُهُ جعلَني أشعرُ بالراحة. لن أخسرَهُ، أقلّهُ كصديق. جلستُ مع أصدقائي، تحادثنا وضحكنا كثيرًا. كانتِ الجلسةُ كلّها تقريبًا تدور حول النصائح الجنسية والموتيل (Motel) الجديد الذي فتح في المنطقة، الموتيل حيث تدور المعاركُ العاطفية الساخنة. يفتحُ البوّابة شخصٌ لا نراه. يوجدُ هاتفٌ صغيرٌ، يرنّ في فمّ السمّاعة:

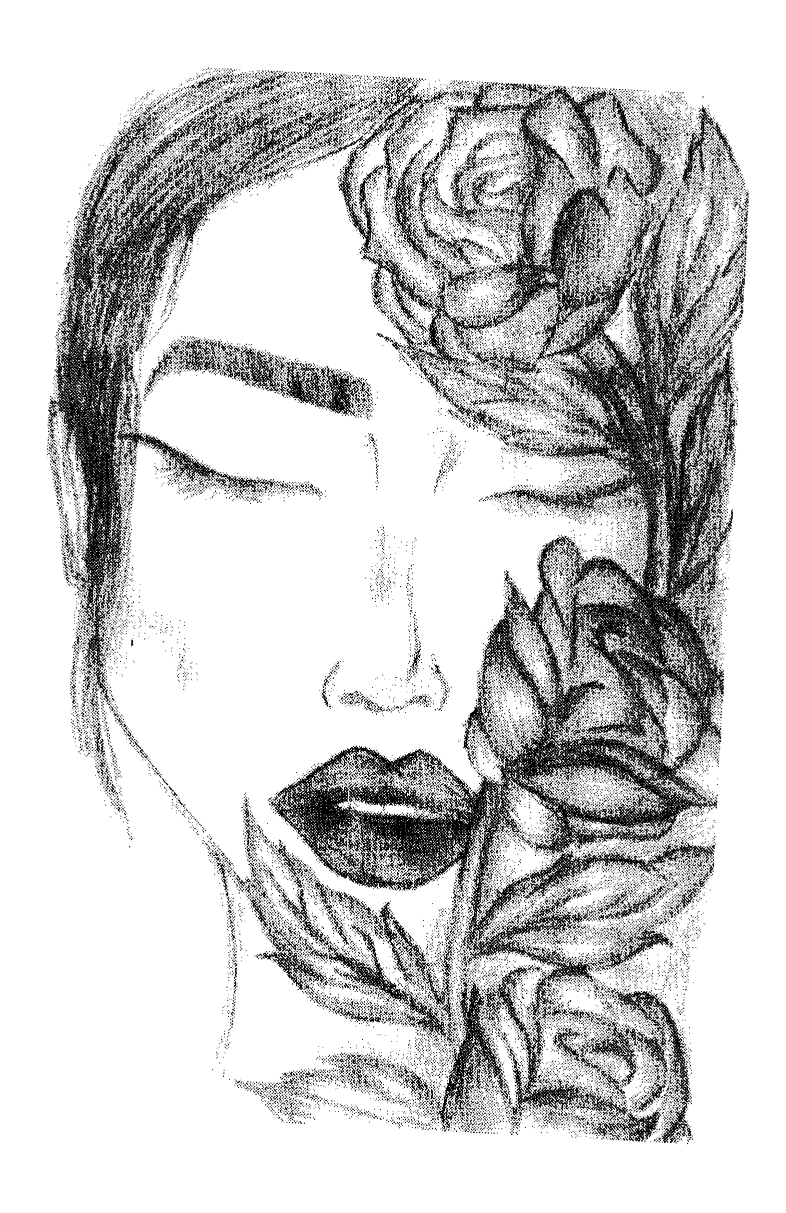
أهلاً سيّداتي.

[illegible]

تستطيعُ أن تختارَ الغرفةَ التي تريدُها حسبَ الصورة وحسب المبلغ المتوافر.. كلٌّ حسب ظروفه المادّية. أصبح أصحابُ الموتيلات يتفنّنون، من غرف يابانية إلى صينية إلى عربية.

- تفضّل سيدي، الغرفة رقم ٣٤٤!

المُضحِكُ أنْ يصادف دخول سيارتكَ وسيارةِ صديقكَ في الخلف، وخصوصاً نحن العرب. أيّ إحراج! يا إلهي. والأكثر إحراجًا أن تلتقي، وأنت بصحبة زوجتك، بصديقكما ولكن بصحبة امرأة أخرى غير زوجته. وهذا ما حدث مع سمير حين كان يصطحب برازيلية. دخل بسيارتِهِ ليرفعَ سمّاعةَ الهاتفِ، وفجأة دخلَتْ خلفَهُ سيارةُ سهيل وكان بصحبة زوجته. المصادفة الخبيثة أنّ الغرف كانَتْ متلاصقة، وبالرغم من أنّ لكل غرفة موقفَها الخاصّ إلا أنّ زوجةَ سهيل استطاعَتْ أن تسرق النظر وتراها، خصوصًا أنّ زوجة سمير شعرُها أسود بينما المرأة بصحبة سمير كانت شقراء. ومَنْ يعتقد أنّ ندى ستسكت طبعًا؟ أخبرَتْ جارتها ثم قريبَتَها ثمّ شاعَ الخبرُ إلى أنْ وصل إلى زوجة سمير وكانتِ المصيبة!



وحيدةً في كرسيّي الهزّاز جلستُ أستمع إلى عزف Erik Satie ورائعة Je Te Veux، أغرق كالشمس في مغيبها فيما تمسّدُ خيوطُها أجفانَ شرفتي الوسنانة. شعرتُ أنّ اللهَ قريبٌ منّي إلى درجة الامتزاج. صَلَّيْتُ في أعماقي ونظرْتُ إلى السماء، وارتسم أمامي وجه أمّي تغمض عينيها و تفتحهما، تنظر إليّ نظرةَ عمر وذكريات، فينقبض قلبي شوقًا وألمًا. هل تؤنّبُني؟

أنا وحيدة على أربعة ذكور. لم أكنْ قطّ فتاة متهوّرة. أتذكّر طفولتي وصباي، ولكن سرعان ما تقذفني ذاكرتي إلى أيام الحرب، وكأن ستارة سوداء تقف بيني وبين طفولتي. كان أبي يسمّيني عصفورةَ البيت، وأمي تقول: «ريف هبةُ الله». ما كنت أعلم أنّ الغربة سترمي بثقلها عليّ، ومَنْ يستطيع أنْ يعرفَ كيف يحلو للقدر أنْ يلهوَ بمصائرنا؟ كمْ من أحلام اندثرت وكمْ من سفينة عاكسَتْها الريح! صديقتي نور كانتْ عبقرية الصف. الجميع كان يعتقد أنّها ستكون من كبار الأطبّاء في لبنان. ها هي، اليومَ، في كندا مع أولادها الخمسة تقضي معظم وقتها

في مساعدتهم على إتمام واجباتهم المدرسية. وهذه سلمى... عاشت قصة حبّ مع زوجها لأكثر من عشرة أعوام واليومَ لا ترى فيه سوى شبح تصارعُ معهُ حاضرَها.

نركب البحار ونخوض الغمار والحياة مدّ و جزر. نصرفُ العمرَ بحثًا عن خفايا النفس وأسرارها، ونموت غير مدركين أن للرّوح جسدًا من عطر الحياة، وأنّ أعمارنا ليست إلا حفنة تراب في كفّ الدهر، يبعثرها كيفما شاء.

يدخل أمين عليّ بقبلةٍ، أصرخ من وهلتي «Que Susto!!!». يضحكُ ويقول: «بمَ كنتِ تفكرين؟ لأكثر من عشر دقائق أتأمّلُكِ وأنتِ شاردة».

يحمل التلفون ويتّصل بصديقهِ قبلَ أن أجيبَهُ!

أشعر بالارتياح، فقدْ وفّرعليّ عناءَ الكذب. ينتهي منَ المكالمة ويشدّني إليه برفقٍ. أليستْ سنواتُنا العشرُ كفيلةً بأنْ يتقنَ إغرائي؟ أبتسمُ تلك الابتسامةَ التي تخفي وراءها ولعًا وقبولًا.

بعد اصطناعي النشوة لفترة طويلة، أيقنْتُ أنّني أخسر الكثير، وقرّرْتُ أنْ لا خسارة بعد ذاك اليوم المشرق في فلوريا نابولس على شاطىء jurere بعد سنة من زواجي. كنْتُ يومها أرتدي فستانًا أبيضَ شفافًا بسيطًا فوقَ البيكيني، وشعري الأسود يتطاير فوقَ كتفي ويحطّ

على أزرار فستاني المفتوح على صدري. نظرَ أمين إليّ نظرةَ تشعّ رغبة.

- أشتهيكِ!

أثارتْني كلماته وأغرتْني، فنظرْتُ إلى عينيهِ مباشرةً، وقلتُ:

- اشتهيني إذن!

أخفضْتُ فستاني قليلًا كي أكشفَ أكثرَ عن نهدي ولوني البرونزي المثير. تقصّدْتُ عدمَ خلع فستاني، وراق لي أنْ يشتهيني هكذا، دونَ أن يلمسَني. شاطىء jurere يعجّ بالناس، لكنّهم عنّي غُيّاب. اقتربْتُ قليلًا وجلسْتُ بينَ أحضانِهِ. أخفضْتُ الناحية الأخرى من الفستان، وببطءٍ مقصودٍ، أنزلْتُ الفستانَ عن جسدي. بدأ يتصبّبُ عرقًا، وشعرتُ بأنفاسه تتلوّهُ. وفي لحظةٍ جنونيةٍ شدّني إلى البحر، اعتلَتْنا موجاتٌ دافئة، أزاحَ البيكيني وهو ينظر إلى وجوه الناس، ربّما أحدٌ تنبّهَ لأمرنا. هذا الخوفُ زادَني رغبة، وشعرْتُ أنني أفقد السيطرة. بدأ يتمرّغ بي، وزاد ولوجُهُ سرعةً. تضاعفَتْ لذّتي عند سماع تأوّهاته الممزوجة بالخوف واللذة، وإذ بموجة عالية تضرب جسدَيْنا وكأنّها تشاركُنا النشوة.

كانتِ النشوة، إذًا، رغم الخوف، رغم كلّ ما حولنا.. إنّها النشوة!

ومنذُ ذلك اليوم أصبحْتُ متطلّبة، أعرف ما أريد، ولا يهمّني كيف، متى، وأين. اكتشفْتُ كلّ زاوية في جسدي.

مَن قال إنّ عنبَ الجنسِ حكرٌ على الرجال، فيما النساء لا يحظينَ الا بحصرمه. لرغبة حوّاء فعلُ السحر لوِ اكتشفَتْ أسرار جسدها

وألغازه. لماذا الرجال أكثر حرية في ممارساتٍ يفترض أنّها مقيدة. إنّ كل إنسانٍ يسعى إلى اكتشاف ذاته ورغباته المدفونة، وهذا جزء من السعادة.

تعتقد المرأة أنّه يصعب عليها الوصول إلى النشوة بدون حبّ، وما إنْ تتحرّر من قيودها حتّى تتيقّن أنّه الحبّ بعينه، وأنّ من الصعب التخلّي عنهُ.

كان أمين يحبّ إتقاني كسرَ الروتين في علاقتنا. في عيد زواجنا الرابع، ارتديتُ ثياب سيّدة الليل (dama da noite)، كنتُ قد اشتريتها من متجر مخصّص للأدوات الجنسية (sex shop)، وهي كثيرة في البرازيل. أذكرُ أوّل مرة دخلتُ إلى هذا النوع من المتاجر، وقفت أمام بابه متردّدة. جلتُ ببصري في كلّ الاتجاهات واعتلتني حمرة فضحَتْني أمام المارّة: إنّني مبتدئة، وكأنّ ذلك المكان للعاهراتِ منهنّ فقط. لفظ جسدي قوته، ودخلت. شعرت بالإثارة لمجرّد رؤية كلّ الأدوات التي لا أعلم كيفَ تُستعمَل، ولكن، حسنًا! لا ضررَ من التعلم في سبيل المتعة، فقد جمعتُ بين الطاعتين: طاعةِ الله الذي أمرَنا بإرضاء الزوج، وطاعة النفس لأنّ تعذيبَها وحرمانَها حرامٌ.

حضّرتُ غرفتي معْ ديكور مثير وأضواءٍ خافتة، ومزجتُ بينَ الورود والشموع وصوري المثيرة وكتاباتي، ولكنْ علّقْتُها كنسيج

العنكبوت مع الكثير من القماش المتدلّي من كلّ صوب. أسدلْتُ شعري، ووضعتُ «مكياجًا» رقيقًا. نقّلتُ يدي بين قوارير العطور، أفتّش عن العطر المخصّص للّيالي الحمر، فتلك اللّيالي لها رائحة فريدة تترك أثرًا في الذاكرة، فتثير الرغبة وتجعل طقوسَ الفراش خاصّة بامرأةٍ محدّدة ورائحة محدّدة. تراشَقْنا جمرَ الكلمات وطلبتُ منه أنْ يمتثل لكلّ أوامري، أوّلها أنْ يخلع ثيابَهُ كلّها ويجلس أمامي عاريًا، ثمّ يُلبِسني جسده متأوّهًا. كنتُ في تلك اللّحظات أنفصل تمامًا عن الواقع وأسلّم نفسي لأحاسيسَ تتدفّق كبركان.

وأذكر، ذات صيفٍ، في يوم حارّ من شهر شباط وفي طريق عودتنا من البحر، مررنا لشراء بعض الفاكهة. كان جسدي مرآةً خمريةً تلمعُ من زيت البحر. دخلْنا mercado أي السوبرماركت، سحبْتُ العربة ومشيت أمامَهُ. تمايلْتُ، ضحكْتُ، داعبْتُهُ متخفّيةً. رحْتُ أتلفّظ بكلام أفقدَه صوابه، وأتوسّله أنْ يلمسَني ولو قليلًا. ارتباكُهُ أثارني وجرأتي جعلتني أتمادى في تحدّيه وتحدّي نفسي. عدنا إلى الموقف، دخلْتُ السيارة، أمسكْتُ بيده ودفعتْهُ نحوي بنظراتٍ ملؤها الرغبة. أنفاسُهُ الحرّى أشعلتْ نار دمي فراحَ يجري في عروقي بسرعة لا تُحتمَل. رفعْتُ فستاني، وكانت لحظات من جنون. كيف حدث هذا؟ لا أدري! كلّ ما أدري أنّني كدْتُ ألامس الحدّ اللّامعقول من الجنون.

غادرتُ البيت نحو الشاطىء وفي نيّتي بعضُ الرياضة الخفيفة. ركضْتُ قليلًا على الشاطىء ولهيبُ الرمل يقطعه عن قدميّ لطيفُ موجٍ بارد. ناداني رودريغو، صاحب الكيوسك «Tudo bem Dona Rif? Você quer água de coco?» (كيف حالكِ؟ هل تودّين ماء جوز الهند؟).

- بعد قليل، رودريغو. أنتظرُ قدومَ ميراي.

ثم التقيتُ ميراي، مجنونتي كما أسمّيها. كانتْ تلوّحُ بيدها لرودريغو وتطلب منه الذّرة مع الزبدة والملح. تتّجه صوبي وعيناها في مكان آخر، ترتدي فستانًا بنفسجيًّا طويلًا، وقبعة من القش كبيرة. ترفع القبّعة عن رأسها، وتطلق العنان لشعرها الأشقر يراقص نسمات البحر، وتلوّح لي بالقبّعة، وتصرخ:

- ريف، أتريدين الذّرة «بَرْكي بتنصحيلِكْ شوي؟»
- Escandalosa. (يا جُرصة!).

لم تكنْ ميراي تأبه لنظرات الناس وتمتماتهم. كانت تعيش الحياة ببساطتها، بالرغم من القيود التي تحكم عائلتها. هي كالطير، تطير متى تشاء وتأبى أن يختار لها أحدٌ متى تحطّ. ولكنّها تضعف أمام أهلها وعاداتهم التي تنكث بها متخفّيةً، حتّى لا تحرج أبَويْها.

تجلس إلى جنبي وتأكل الذّرة بثوانٍ، ثمّ تطلب أخرى.

أضحك وأقول: «لا بدّ أنّك متوترة، تأكلين بدون كونترول!».

تسألني عن حال أمّي وتلتزم الصمت قبل أن تدير وجهها ناحية البحر. كان الحزن في عينيها جليًّا! هي التي لا تعرف الحزن والملل، أو بالأحرى هذا ما كنّا نعتقده. فخلف هذا الوجه البشوش وهذه الروح المرِحة، امرأة مأسورة في حلم الأمومة. هي ابنة التاسعة والثلاثين عامًا، تتوق للزّواج من رجلٍ يقدّر المرأة ويفهمها. تتبسّم وتنظر ناحيتي وتقول: «كيف حال أمك؟ لم تجيبيني!».

- أمّي ليست على ما يرام، وأظن أنّني سأسافر قريبًا كي أراها. ولكن، ما سبب حزنك، عزيزتي؟

تجيب بضحكةٍ في رَجْعها بكاء: «حزنٌ وألمٌ يسكنان قلبي، وأمل بالعمر يهرب منّي. على أبواب الأربعين وما زلتُ أنتظر فارس الأحلام اللّبناني. ما زلتُ أنتظر رجلًا من ديني، ميسور الحال، بهيّ الطلعة،

مهيب النظرة، طويل القامة، رفيع النسب، سامي الخُلُق». «وما تنسي بدّو يكون من ٨ آذار!».

انفجرْتُ مقهقهة بغير توقّف وقلتُ: «أفي نيّة أهلكِ الفرحُ بكِ أم اختبارُ صبرك؟ على هذه الحال، أراكِ تنتظرين لأربعين سنةً أخرى».

الانقسام في وطني ألقى برداءته على الجاليات العربية، وكأنّما ليسَ يكفينا همٌّ غربتنا وأنينُ شوقنا لوطنٍ ما تركناه يومًا طَوعًا وإنّما بحثًا عن الأمان والعيش الكريم. يأتي حكّامنا بزيارات عارية إلا من الفتنة، يستغلّون حنينَ البعض وسذاجة البعض الآخر ليزرعوا فيهمْ بذور انقساماتهم وجهْلِهم.

أستدير وأقف أمام ميراي، أنظر إليها وكأنّ غصّةً أصابتني. أرفع يدي السمراء وأضعها على رأسها:

- إلى متى سنبقى مصابين بداء الجهل يا عزيزتي؟ الكلّ يعرف بعلاقتك بـ Comandante Gustavo. لماذا لا تتجرّئين وتخبرين أهلك عن حبّكما؟

كان غوستافو شابًّا في السابعة والأربعين من عمره، جاء إلى كامبريو بعد تعيينه قائدًا للقوّات البحرية في مقاطعة سانتا كاترينا. هو من منطقة بهيّة «Bahia»، بشرتُهُ السوداء، بنيته القوية، شفتاه المكتنزتان،

كانتِ السبب في انجذاب ميراي له. كان يستهويها negão كما نقول بالبرازيلي.

أذكر أوّل مرّةٍ قبّلَها. ظلّتْ كلّ اللّيل تحاول أن تشرحَ لي شعورها وكيف لم تستطعِ المقاومة وكم احتاجت إلى إرادة قوية حتى جعلته يتوقّف عند هذا الحدّ. يومها قالت لي:

- ريف، توسّلتُ إليه أن توقّفْ. أنا عربية، إنْ علم أهلي أو رآنا أحدٌ، لقتلنا نحن الإِثنين.

ثمّ تضحك بأعلى صوتها وتقول: ليته لمْ يتوقف! كمْ كنْتُ بلهاء!

كم تغيّرتْ ميراي بعد علاقتها بغوستافو، وكم ستتغيّر إنْ علم أهلُها.

- إذًا، لن تتزوّجي من غوستافو؟
- مجنونة أنتِ.
- ولكن لماذا؟ ما عدْتِ طفلة!
- ألم تسمعي أمي «الي بياخد من غير ملتو بِموت بعلتو»؟ وأبي حتمًا ستصيبه نوبة قلبية.
- ولكنْ، يا ميراي، أخوكِ متزوّج من برازيلية. وين الغلط؟
- هل أنتِ جدّية في كلامكِ؟

تنظر إليّ بمقلتينِ كبيرتينِ ازدادتـا توسّعًا، وتقول: «وكأنّكِ لاتعرفين عاداتنا وتقاليدنا!»

غالبًا ما يدفع الإنسان ثمن اغترابه، كأنْ يتخلّى عن عاداته وتقاليده، وأحيانًا عن دينه. الغربة سيفٌ ذو حدّين؛ تقدّم لكَ ورودًا من ذهب لتجرّح في المقابل يديك الحاضنتين طفولتك وماضيك. الغربة «آنسةٌ في الحي شيمتها الغدر»؛ توهمكَ بوعد الرجوع وبأنّ وحدتك موقّته، حتّى يغزوَ الشيبُ رأسك فتظلّ مترجحًا بين أمل العودة وتقبّل الواقع، وتأتي النتيجة خسارة التمتّع بالحاضر وفقدان الأمل بالمستقبل. نعيشُ الغربة بلباس الوطن، وننسى أنّ للغربة ضريبة العمر. يقولُ هوراس الروماني «سعيدٌ وحده ذلك الإنسان الذي يحيا يومه ويمكنه أن يقول بثقة: أيّها الغد، فلتفعلْ ما يحلو لك، فقدْ عشْتُ يومي».

يحقّ للشّابّ أن يتزوّج من برازيلية، ولكنْ تزلزَلُ الأرض إنْ أحبَّتِ الفتاة العربية برازيليًا، رغم أنّ البرازيلي غالبًا ما يقدّر الفتاة، وبالذات العربية، أكثر ممّا يقدّرها الشرقي. وكم من فتاة حالُها حال ميراي، ما زالتْ عزباء تنتظر «ابن البلد»، ذلك الشاب الذي إمّا يعود إلى الوطن ليتزوّج بفتاة «ما باس تمها غير إمها» - كما يعتقد - وإما يتزوّج برازيلية! وتبقى الفتاة العربية، وخصوصاً في البرازيل، تائهة بين عادات أهلها وتقاليدهم وبين الواقع ومحيطها.

تأتي على بالي صديقتنا نور. كم عانتْ مع زوجها! كانت نحيلة جدًّا وملامحها مجهدة ورقيقة. عانتِ الكثير من ضرب وتعنيف جسدي ومعنوي وأخلاقي، ما دفعها نحو إدمان على حبوب الأعصاب. طلبتِ الطلاق غيرَ مرّة، و لم تجرؤْ على ترك ابنها، فقد هدّدها زوجها بأنْ يرحل به إلى لبنان، وأن يحرمها من رؤيته. كانتْ تعرف أنّه يخونها دائمًا مع عاهرات من الشارع، وكم كانت تخافُ أن تلتقط أيّ داءٍ من جرّاء علاقاته. ذاتَ مرة، طلبتْ منه استعمال الواقي فانهال ضربًا حتّى أغمي عليها. منذ تلكَ الحادثة، ثارت وأدركت أنّ الوقتَ قد حان للدّفاع عن حقوقها فادّعت عليه في Delegacia da Mulher – Policia Civil أي مركز الشرطة الذي يُعنى بالدفاع عن المرأة المعنّفة وحقوقها. ففي البرازيل، قانونُ حماية المرأة من العنف الأسري يعزّز حقوقها ويضمن سلامتها ويكفل حمايتها وعلاجها النفسي. وخلال تردّدها إلى المركز، أغرم بها Delegado أيْ رئيس المركز. طويل القامة، أزرق العينين، ذو شعر كستنائي، وبنية قوية. أمّه من أصول ألمانية وأبوه من أصول برتغالية. كان يجنّ جنونه كلّما رآها تبكي وآثار الضرب على وجهها. وفي يومٍ، اتّصلت به تصرخ من غرفتها حيث حجزتْ نفسها مع ابنها، بعدما أفلتتْ من يديْ زوجها. وقتَها، دخل منزلها كالمجنون وأفرغ على وجه الزوج بركانَ غيظه حتّى كاد يقتله لولا تدخّل مساعِدَتِهِ. أخذَتْهُ الشرطة حينها وأجبرَتْه على الطلاق. ولكنْ، أذكر بعدها أنّ رئيس المركز عانى من دعوى قضائية

قدّمها الزوجُ ضدّه، متّهمًا إيّاه باستعمال السلطة «abuso do poder». بعد مرور سنةٍ تقريبًا وبعد طلاقها، تزوّج Delegado بها. وها هي، اليوم، تعيش حياة كريمة. جميع ملامحها تغيّرتْ، وتعبها الذي استمرّ لسنواتٍ طوالٍ تبدّد، لتشعر بإنسانيتها وكرامتها وجمالها.

جلسْنا معاً على الشاطئ وأمواج البحر تلاطف أقدامنا، وسألتها بتنهيدةٍ متمرّدة: «إلى متى تخالينَ نفسَكِ باقيةً على هذه الحال؟»

تجيبني بتهكّم: «لن يأتي عريس الغفلة، تأكدي. انقرضوا!! الرجال كلّهم صاروا gays». تضحك ضحكة عالية وتشير بيدها إلى surfista (راكب أمواجٍ)، مفتول العضلات أظنّه يعيش في نادي كمال الأجسام، جميلٍ حدّ الكارثة، كتفاه وحدهما كفيلتان بالنزوة. وتقول: بِتشارطي إنّو gay.

- ألـمْ أقل لكِ escandalosa؟

أمسكْتُ يدها التي تشير إلى الشاب الوسيم وأنزلتُها باتّجاه الأرض، وقلتُ: «ولكن، يا ميراي، غوستافو لن ينتظرَك العمر كلّه!».

- حينَها أكون قد سدّدتُ ضريبة غربتي وعاداتي الزائفة، عزيزتي ريف!

كنتُ في السيارة مع أمين، حين وصلتْني رسالته: «هل تفسّرين الأحلام؟».

- الأحلام؟! لا، أنا أقرأ العيون!
- تِسْلَم عيونِك.
- ماذا تفعل؟
- الآن انتهيتُ من إعداد حلقتي، وأريدُ أنْ أستريحَ قليلًا. احزري لون ربطة العنق التي سأضعها اليوم.
- أزرق؟
- فكّري قبلَ أنْ تجيبي.
- وهلْ تلبس بما يتناسب وموضوع الحلقة؟! أصفر مثلًا إنْ كنت تتحدّث عن حزب الله، أزرق عن تيّار المستقبل، وبرتقاليًا عن التيار الوطني الحرّ...

يضحك ويقول: «ايه واللّه! متى كان للعقيدة لونٌ، فكلّ خيّاط مفكّر وكلّ صّبّاغٍ فيلسوف».

تتوقّف السيارة ويقول أمين: «تفضّلي!»
وكأنّني في حلم جميل. أرفع رأسي، وباستغراب شديد أقول:
- وصلنا؟
- طبعًا. لم تشعري بالمسافة وأنتِ غارقة تتبسّمين «وتتسايري مِدْري مع مين!».
- مع ميراي!

حسنًا، بدأتُ أكذب. انقبضَتْ أنفاسي وبدأْتُ أشعرُ بضيقٍ في صدري. الكَذب من أبشع الصفات عندي، ولكنّ للحبّ فنونًا، وأوّل فنونه الكذب.

ندخل المطعم Casa da Lagosta. كانت الساعة تشير إلى السابعة مساءً. جلسنا إلى طاولة مستديرة في زاوية المطعم، أمام نافذةٍ تطلّ على البحر. رفعتُ يدي إلى إحدى الفتيات اللّواتي يعملن في المطعم، وطلبْتُ كوبًا من الماء. كان المساء بحمرة الأفق يجاهد هبوط الليل وكأنه يعلم عشقي لتلك اللحظات. جلس أمامي أمين واستغلّ الدقائق القليلة قبل مجيء رئيس البلدية ومعه النائب الفدرالي في حزب العمّال، ليتفحّص بريده الإلكتروني.

كانت البرازيل قد انتهتْ تواً من الانتخابات الرئاسية التي نتج منها إعادة انتخاب الرئيسة ديلما روسيف، بيدَ أنّ البلاد كانتْ تعيش تحت وطأة الفضائح السياسية. وصلَ ضيوفنا، رحّبْنا بهمْ وجلستُ وحيدةً بينهمْ. زوجة كانديدو، كاميلا كانتْ في سفرةٍ إلى أوروبا، ورئيسُ البلدية مطلّق. يقال إنّ زوجته برونا طلبتِ الطلاق بعد علاقة حبّ جمعتْها مع مدرّبِها الرياضي. حينَ انتشر الخبر في كمبوريو، حسدَتْها باطنًا نصفُ نساءِ المدينة، ولعنَتْها علنًا. هنا أيضًا، على الرغم من الحرية التي تتمتع بها المرأة أو الإنسان بشكل عامّ، إلا أنّه لا بدّ من الـ fofoca (النميمة).

ثلاثُ ساعاتٍ من الوقت والنقاش يتمحورُ على أداء روسيف المتوقَّع وعلى التحدّيات التي تنتظرُها وحزبَها الذي ما أنصفَهُ اسمُه ولا تاريخه الطويل في الكفاح.

يقولُ أمين للنّائب: «فوزُ ديلما لم يكنْ سهلًا، خصوصًا بعد تراجُع شعبيتها».

«معكَ حقّ صديقي»، يجيبُ النائب ووجهه الأبيض بدتْ عليه علامات القلق.

يردّ أمين: «أنتمْ أمام مسؤوليات جمّة لإعادة الثقة بكمْ».

يجيبُ النائب بتنهيدة الخائف: «إنّ فوز ديلما يمثّل تحدّيًا لأدائها المتوقَّع، ولا أعرف إنْ كانتْ ستنجح بالقفز فوق فضيحة شركة النفط، لا سيّما أنّ المعارضة والنقمة الشعبيتين تتفاقمان. أنا قلقٌ على البرازيل يا أمين!».

يُشاركُ رئيس البلدية النائبَ قلقه، ويقول: «أنا أيضًا قلقٌ على البرازيل، بلْ على كلّ أميركا اللّاتينية. شعبية الحكومات اليسارية التي حكمتِ المنطقة منذ بدايات الثمانينيات بدأتْ تنحسر. فنزويلا وهول المعاناة. كوبا مصدرُ الإلهام لليساريينَ، نرى زعيمها المقاوم راؤول كاسترو يمدّ جسور التطبيع مع عدوّه التاريخي أميركا. تشيلي وتراجع شعبية الرئيسة ميشيل باشيليت. الأرجنتين والتضخّم الذي فاقت نسبتُهُ خمسًا وثلاثين بالمئة.

ليستِ البرازيل بأفضلِ حال. أكبرُ بلد في أمريكا اللاتينية، وسابع أكبر اقتصاد في العالم، بخطوات مدروسة تعزز علاقاتها مع دول تغرّد خارج قفص التبعية المُطلَقة للولايات المتحدة الأمريكية، ولن يهدأ بال الأخيرة قبل تحقيق أهدافها بالسيطرة على أرض السلام. تارةً بالحرب على المخدِّرات وطورًا على الإرهاب، كلّها حروب شُنَّتْ لأسباب تختلف عن الأهداف الحقيقية.

يبقى المارد البرازيلي، وبعد الارتهان لعقود للمؤسسات المالية العالمية، يفرد جناحَيهِ ليخرج إلى آفاق العالم ويخرج معه أكثر من ثلاثين مليون برازيلي من تحت خط الفقر، من ماسح الأحذية الرئيس لولا ايناسيو دا سيلفا إلى المناضِلة الرئيسة ديلما روسيف ابنةِ المهاجر البلغاري التي اعتقلت لثلاث سنوات إبّان الحكم الاستبدادي. كأنّنا نشهدُ اليوم بداية انكسار المارد اللاتيني. الاحتجاجاتُ تعمُّ الشوارع، التضخّم يقارب ٤٠٪، شركاتٌ كبيرةٌ تعلن إفلاسها، فضيحة شركة النفط الوطنية بتروبراس (Petrobras) والادّعاءات بتهريب الأموال إلى البنوك المصرفية السويسرية وغسلها عن طريق الأعمال الفنّية، كالتهمة الموجهة إلى جوان كارلوس، مديرٌ عامٌّ شركة L.U.C. أتذكره، أمين؟ إنّه متّهمٌ بدفع الرشاوى للفوز بالعقود في شركة بتروبراس. وغيره من الأسماء الوازنة، كرئيس مجلس الشيوخ ورئيس مجلس النواب، حليفَيْ ديلما من حزب الحركة الديمقراطية الوسطي. يُقالُ إنّه كلّما

اشتدّتِ الأزمة انفرجَتْ؛ ولكنْ بعد الذي عرضَهُ البرنامج التلفزيوني «فانتستيكو» حول تجسّس الأمن القومي الأميركي على الرئيسة ديلما وعلى شركة بتروبراس، لا بدّ من سلوك طريقٍ أكثر أمانًا، وقلب اللعبة لتتماشى وموازينَ التطوّرات الداخلية والخارجية. لا تستطيع البرازيل أن تركب القطار دون أن تعرف وجهته».

عدْنا إلى البيت وفي قلبي توقٌ كبيرٌ للتحدّث إلى عاصي. صعدْتُ إلى غرفتي فيما اختار أمين تفحُّص البورصة. بعد حمّام ساخن، وضعتُ «كريم» ضدّ التجاعيد، علمًا أنّني أعلم أنّه ليس من «كريم» يستطيع محوَ خطوط الزمن وطيّات العمر؛ إلا أنّ المرأة تهوى دائمًا بذخ الأموال بحثًا عن صباها الضائع وراء تلك التجاعيد.

تمدّدتُ على سريري وأمسكْتُ الهاتف لأكتب إليه، وإذْ بأمين يفتحُ الباب.

- جئتُ في الوقت المناسب؟

كدْتُ أقول «لا»، إلا أنّني استدركْتُ أمري، وأجبتُ: «كلّ الأوقات لكَ مناسبة».

تسلّلتْ كفّ يدِهِ على عنقي، وقبل أن تلفّ ذراعُهُ كتفي وتلامس طرف نهدي، وضع قبلات هامسة لامسَتْ أنفاسُها ظهري. جرّدني من «روب» الحمّام وتركني عارية. نظر إليّ نظرة فيها رغبةٌ عاصفة،

وضع طرف إصبعه على فمي، ورسم شفاهي بيديه. قبّلني في كلّ أنحاء جسدي، لامسَني في الأماكن التي تستهويني، وهمس في أذني أكثر الكلمات إثارة. تمرّغ بي وزاد جموحه في داخلي دونَ توقف.

كنْتُ منفصلة تمامًا عن جسدي، لم أقطفِ اللّذة التي طالما قطفْتُها كيفما كنّا وأينما كنّا.

أتراه أحسّ ببرودتي؟ حتّى تأوّهاتي كانتْ باردة! لم أستطع التصنّع، فقد اعتدْتُ صنعَ نشوتي وليس تصنّعها.

شعرْتُ بانقباض مرير في تلكَ اللّيلة الباردة. شعور ممزوج بالقلق والشوق والانتظار.

سألته: «هل ستعاود العمل؟».

- لا. هل تمانعين إنْ شاهدتُ التلفاز وأنت تقرئين؟
- طبعًا لا، حبيبي. على العكس. حتى إنّني لا أريدُ القراءة. سأشاهد معك ما تودّه.

رحتُ أستعجل نعاسي، أحاول أن أنام لعلّي أنسى وجع الانتظار.

في الصباح التالي، استيقظتُ باكرًا وكأنّني على موعد معه. دخلتُ صفحته فوجدتُها مغلقة.

ما بيننا وسيلة أخرى للتّواصل. وجدتُ نفسي منكسرة الخاطر، ولا أدري كيف ارتسم في بالي قول قيس بن الملوّح:

«كعصفورةٍ في كفّ طفلٍ يزمّها   تذوق حياض الموتِ والطفلُ يلعبُ».

مرّ النهار وأنا أتأمّل صفحته كلّ دقيقة. وجاء اللّيل بسواده ولم أستطع التكلم معه.

عاد وفتح صفحته من دون أنْ يكلّمني! هل أبادر بالكلام؟ تريثتُ قليلًا إلا أنّ لهفتي غلبتْني، فقد كنتُ أريد إخباره بأنّني سأسافر إلى لبنان بعد أسبوع. كنتُ أريد إخباره بأنني ما عدْتُ أقوى الصبر، وأنّ رؤيتَهُ أصبحتْ رؤياي في كلّ نهار وحلمي في كلّ ليل وهدفي في كلّ وقت.

كتبْتُ: «ماذا تفعل؟».

كان في كلامه جمودُ التمثال، يبسٌ، تمرّدٌ، مللٌ.. لا أعلم ما هو، لكنّهُ كان غريبًا. انتابني شعورٌ بالحماقة، وكأنّني دخيلةُ ليلِهِ. يُضحكُني حين يحلو له، ويبكيني ساعة لا يحلو لي. تارةً يأتيني بجميل الكلام وطورًا يدير نحوي ظهره! أنهى كلامه معي بداعي النعاس. تركني وليلي الذي اعتاده.

من أين يأتي النوم وتلك الجرعة المنوّمة أسكنَها سرَّهُ وأطبقَ عليها.

مرارًا تقلّبتُ ذات اليمين وذات اليسار، أحضنُ وسادتي وأغرز رأسي في عمقها، علّي بذلكَ أوقف دوران أفكاري وتساؤلاتي. الساعة تقارب الرابعة فجرًا. أكتب: «ما عدْتُ أريد أن أكون ضحية فراغكَ!».

ما كنتُ أعلم أنّ كلماتي هذه ستخطّ آلامي. كنتُ أظنّهُ يعلم أنّ المرأة حين تغضب لا تحملُ مسطرة الكلمات لتقيس بها درب الحبّ.

أجابَني في مساء اليوم التالي: «كنتُ أتمنى أن تفهميني أكثر. لن تسمعي صوتي بعد اليوم. أتمنى لك كلّ التوفيق».

وصلَتْني رسالته وأنا أقود سيارتي... غشاوة من القلق غطّت عينيّ.

«مهلًا سيّدي. أحقًّا تودّعني؟! موعد الطائرة بعد خمسة أيام. سأكون في بيروت بعد خمسة أيام. تفصلني عن رؤيتك خمسة أيام».

كنتُ أُعِدّ للقائكَ شمعًا يضيءُ أيامي بالحبّ والرجاء. كنْتُ أَعُدّ الأيام والساعات.

تمالكْتُ حزني وقلت: «حتّى في وداعِكَ قاسٍ! اسمعْني وليكنِ الفراق بطيبِ ما كان بينَنا».

كنتُ أودّ القول: «ليكنِ الفراق بعدَ اللقاء.

ليكنِ الفراق بعد أنْ أروي ظمئي من نظرات عينيك.

ليكن الفراق بعد غمرة أختصر بها جنون الثلاثين.

ليكن الفراق بعد قبلة أحرس طعمها مدى السنين».

ما هذا الذي جرى؟ منذ يومين كنّا سعيدينِ، نتحدّث، نضحك، لتمرّ اللّيالي عليّ كلفحة نسيمٍ في وقت الهجير. فما الذي تغيّر؟

هل جاء دوركَ في الهروب؟

هل مللتَ خوفي وكثرة إحساسي بالذنب؟

هل هذا وعدك بحمايتي؟

ألفُ «هل» و«لماذا» أحدثتْ في كياني فوضى قاسية، أغرقتْني في حالة من التفكير والضياع.

بعد يومٍ مضطربٍ لم أغادر فيه سريري، لم يكن لي بدّ من الخروج لشراء بعض لوازم السفر. قدْتُ سيارتي دون وجهة. البحر كئيب، رغم ألق الصيف، وبريق أجساد المستلقيات على الشاطئ.

يأتي الحبّ متأخّرًا، في الوقت غير المناسب، فلطالما تجيء الأشياء الجميلة متأخرة، وما علينا سوى قطف العِبَر. حلم جميل ومرّ! استجمعْ قواكَ وتنبّهْ. عينك بعين الله، فكلّ شيء يسرٌ لا عسرَ فيه.

أعرف أنه الرجل غير المناسب، جاءني في الوقت غير المناسب، ولكنّه رحل في الوقت المناسب.

لا شيء تغيّر في لبنان، فوضى المطار على حالها. شرطي ينتظر على باب الطائرة ليخرج بصحبة أحدٍ ما، إمّا «برستيج» وإمّا لسببٍ ما ربّنا عليمٌ به! تقف عند شبّاك ختم الجوازات فيمرّ ذو «الواسطة» أوّلًا، غير آبهٍ بعجوزٍ ولا بامرأة تحمل في بطنها أو على ذراعيها طفلًا.

وصلت إلى الجمارك!

- البرازيل سيدتي؟
- نعم.
- افتحي الحقيبة لو سمحتِ.

تُفتَّش الحقيبة وتُبعثَر كلّ محتوياتها، كأنّما يبحثون عن غرضٍ معيّن فيها. والحقيقة أنّهم يبحثون عن أثرٍ من ضواحي أميركا اللّاتينية في حقيبتي اللّمّاعة. لا ألومهم، فتجارب شبابنا مع الثراء الأبيض السريع قد سوّد وجوهنا. نسلك طريق المطار التي تحوي الكثير إلا النظام. يضحكني أخي وهو يتململ من تصرّفات السائقين، وتراه هو

المخترق الأوّل لكل أشكال القانون، تحت مبدأ «شو وقفِتْ عليّي يا إختي؟».

استلزمنا الوصول إلى البيت خمسينَ دقيقة، وهو لا يبعد عن المطار إلا عشرة كيلومترات.

أرى وجه أمّي شاحبًا، تعبًا، تغطّيه ابتسامة حنون. تغمرني يداها المرتجفتانِ وتشدّني بهما كأنّها تُدخِلني بين أضلعها. تشمّني وتقبّلني.
- يا عمري يا ماما! ما يِحرِمْني هالطلّة.

أقبّل يديها على الوجهينِ، رأسَها ووجنتيها. أجلس في حضنِها وكأنّني أحتمي به من خطرٍ ما.

منذ اللّحظة الأولى وأنا أبحث عنه. في وجوه الناس، وعيون المارّة، في الطرقات والمباني، في السيارات والمقاهي. أيّ مقهى يرتاده؟ أيّ مطعم يحبّه؟
ما استطعتُ أنْ أصدّق أنّه قدْ يكون بعيدًا عنّي أمتارًا ولا أراه. قد يكون عبَر الطريق نفسه قبل مروري... قد يكون عبرَها من بعدي. باللّه، ارأفي بي أيّتها المصادفات!
هاتفي لم يفارق يدي، لعلّ الشوق يلتهم عنادَهُ، لعلّ شمس

نيسان تذيب قساوته. لعلّه شعر بوجودي، ولكن... لا خبر ولا رسالة.

تمرّ الأيام مرور اللّيل على المقرور. يومي العاشر في بيروت ومازلْتُ أبحثُ. سئِمْتُ مقولة « لبنان بلد صغير » وأنا أراه كبرَ ضياعي.

سئمتُ السيارات «الفومي»، لعلّه بداخلها.

أحببْتُ زحمات السير، لعلّه يتوقّف بسيارته إلى جانبي.

هل سافر؟؟

غدا الألم واقعًا يشهد أنيني كلّ يوم. هل أعود إلى البرازيل من غير أن أراه؟؟ هل كان ما كان وهمًا وسرابًا.

اطمأننْتُ على حال أمي، رغم ضياعي. كانت تسألني دائمًا: «ما بالكِ شاردة؟ أرى حزنًا يسكن عينيك، كأنّك مكسورة الخاطر. أثمّة مشكلة بينَك وبينَ أمين؟».

قلب الأمّ يستشعر ألمَ أولادها، لا سيّما أمّي. من كفّيها ينبثق ضوء حياتي، ومن عينيها ينساب نهر التحنان. جميلة كالشعر، صافية كالينبوع. معها تحوّلنا، أنا وإخوتي، إلى أجسادٍ بروح واحدة، إلى عقولٍ بضمير واحد، إلى أطباع بخلُق واحد. حوّلَتْ موتَ أبي منْ حدادٍ إلى سيفٍ نحرَتْ به يأسنا ومصابَنا.

على شرفة منزلنا جلسنا نتحادث. تضحكني حين تتكلم في السياسة؛ تردّد أقوال اللّحّام وبائع الخضار والناطور. تشاهد البرامج السياسية ولكنّها تلتقط ما تريد.

تدخل جارتنا أمّ سعيد وهي تتأفأف:
- السيد وإصبعه تاج على راس الكلّ وِلّي عجبو!
تسألها أمّي ضاحكةً:
- خير! مين زاعجِك؟
- عجبِكْ إم توفيق! قال شو بدّو بعد السيد؟ ما حرّر الجنوب! دفعْنا دم وقهر لنْوَقِّف بنصّ الطريق؟
- طولي بالك يا إم سعيد، إم توفيق ما بتقصُدْ. هيّي بتحبِّك كتير!
- يحبّا برص هيّي وحَكْيا. بدّيش تحبني!

أمّ سعيد أضناها استشهادُ ابنها، وهو في ريعان شبابه، فذهب البريق من عينيها وانطفأ معه أملُها بالحياة. استشهد هيثم في حرب تموز في عيتا، بعد ساعةٍ من مكالمته أمّه، يطلب منها السماح. ومنذ ذلك الوقت وصوته يسكن صلاتها كلّ فجر. لم تستوعبْ شهادة هيثم لأنّها أمٌّ؛ أمّا هو، فلمْ يخذلِ الأرض، لأنّها أمُّهما.

في البرازيل، لا نجد البرامج السياسية إلا قبيلَ الانتخابات،

كي يُناقَش البرنامجُ السياسي لكلّ مرشّح. أمّا في لبنان، فهي حديث الساعة وقوتنا اليومي. تُشرَب القهوة كلّ صباح مع محلّل سياسي جديد ينهمر على المُشاهد بأخبار وقصص غالباً ما تكون مفبركة، لإرضاء فريق معيّن. وكمْ محلّلٍ اتّخذَ من هذه «الفبركة» مهنةً يتقاضى راتبًا جرّاءها! بات المحلل السياسي مُنجِّمًا تنتظره الناس لتطّلع على مجرى الأحداث وما ستؤول إليه الأوضاع في المستقبل، بغضّ الطرف عن العلاقة المشتبه فيها بين المحلّل ومصادره. فالعديد من المحلّلين أو الصحافيين غرقوا في وحول الفتنة، وأصبحوا أبواقًا تمجّد السياسيين والحكّام. أمّا الأُصَلاءُ النبلاءُ الشرفاء الذين يمسحون عن الحقيقة غبارَ الرياءِ فَهُمْ قلّة!

قاتلي واحدٌ منهم.

هو ماردُ الكلمة وصانعُها. بحضورِهِ يتحوّل المِنبر إلى ريشة تخطّ مبادئ الرقي والوطنية. يحلّل السياسة بحيادية واحترافية. يؤْمن بأنّ كلّ طرَفٍ يملك جزءًا من الحقيقة، وعلى الصحفي أنْ يحتكم لضميره، لا أنْ يصبّ الزيت على النار. تختزن كلماته وجع كلّ عربي، وجعَ هذا الشعب الذي يستحقّ الحياة. يؤلمُهُ التفكّك، التشرذم والصمت.

كتب عن الأمّة: «استُغِلّتْ دماءٌ وزُهِدَ بأرواحٍ، وشهِدْنا على ربيع جافّ بغير ورد ولا عطر. اغتيل ربيع العرب بيدِ الجهل تارةً، وبيد الاستغلال تارةً أخرى. نعوّل دائمًا على الخارج، غيرَ مدركين

ما يترتّب عنْ ذلك من تبعية وارتهان. بات همّ الحكّام عرشًا سلطويًا ميكيافيليًّا. ألمْ يخطرْ ببالهمْ أنّ الغاية لا تبرّر الوسيلة وأنّ التعسّف يولّد الانتقام؟».

وعاتب لبنانَ: «بدلًا من أنْ ننسجَ الزمن على منوالنا، وأنْ نزرع بذور الحضارة في كلّ قَطْرٍ، «أخذْنا نلبس ممّا لا ننسج، ونأكل ممّا لا نزرع». مَنْ أهدى الكونَ نورَ الأبجدية وانتشلَ بنِيهِ من العبودية والجهالة»؟

حزمتُ أمتعتي ورسمْتُ قبلة وداع على وجه أمي. عدْتُ أدراجي خائبة، دون وجه حبيبي، دون عطر حبيبي. ودّعتُ بيروتَ بحرقةِ مهاجر وكأنها المرّة الأولى.

كان اللّيل قد انتصف، والجوّ أصبح غائمًا. دخلتُ الطائرة وجلستُ على مقعدي، إلى جانبي شابّ ثلاثيني أنيقٌ، شديد الوسامة، له عينان بنّيّتان. جلستُ وأخذتُ أبحث في الجريدة عن المقال الأخير لعاصي.

نظر إليّ الشابّ الوسيم وقال:

- أيمن.
- أهلًا.
- (وهو يضحك): هل تتابعين أخبار السياسة أيضًا؟
- قلتُ في داخلي: «أتابع مقالاته فقط».

- وما المضحك في ذلك؟ ليس هذا بغريبٍ على اللّبناني! الكل ما شاء اللّه يفهم بالسياسة.

أجابني مع التفاتةٍ برأسه: «وهذا ما يضحكني. فيما البلاد الأخرى همّها الفنّ والرياضة والأدب والتكنولوجيا والاختراعات واكتشاف حياةٍ على كواكب أخرى، تنهشُكمْ أنيابُ السياسة و«٨ و١٤» و«سنّي وشيعي ومسيحي».

- أنتم؟! ألستَ لبنانياً؟
- لبناني حقيقي.
- هل يوجد لبناني حقيقي ولبناني زائف؟
- طبعًا! كلّ مَن دفع ثمنًا لهذه الأرض حقيقي، إنْ يكنْ بالدم أو بالكلمة أو بالعِلم. المغترب لبناني حقيقي، العجوزُ الذي أبى تركَ بيته لبناني حقيقي. الفنّان، الموسيقي، العالِم، هم الحقيقيون الذين صانوا عرض هذا الوطن الشريف.
- ومن هم الزائفون؟
- هم الذين اغتصبوه جهرًا. كلّ مَن تاجَروا بالتاريخ، وبنوا زعامتهم على حساب الدم والقتل والفتن.
- معكَ حقٌّ! ولكنْ، أليسَ برأيكَ همْ من يلهوننا بتلكَ الأمور، يختلقون الفوضى لتفريقنا وإذلالنا وتقسيمنا.

- نعم، ولكننا أرضٌ خصبة وموضوع قابل. على كلّ حالٍ، ما وجهتُكِ؟
- البرازيل.
- البرازيل! بلد رائع، لكنّ خسارتكم في المونديال زريّة.
- ثمّ يغرقُ في ضحكٍ مديد.
- يا إلهي! لاتذكّرني بفضيحة الـ ٧-١. أخالُك مِن مشجّعي الأرجنتين، لا يهمّك مَن ينال الكأس؛ المهمّ أنْ لا يكون البرازيل!

حدّثني الوسيمُ لساعتين ونام لساعتين أُخريَينِ. وصلْنا مطارَ شارل ديغول. حطّتِ الطائرة ونزل الركّاب. وقتٌ قليلٌ يفصلني عن موعد رحلتي التالية إلى ساو باولو. تنقّلتُ كعصفورة الدوري بين واجهات السوق الحرّة، وكأنّني بذلك أتممتُ واجبي كامرأة، ثمّ جلستُ لشرب القهوة في أحد مقاهي المطار. وبينما أنحني لأتناول كتابًا من حقيبتي، إذْ بصوتٍ يخترق جوارحي فيهزّها هزًّا. ليس غريبًا ولا مألوفًا، إنّما له نقشٌ بذاكرتي الحرّى.

- استجمعتُ قوايَ والتفَتُّ، وكأنّني امرأةٌ ولدْتُ توّاً في هذه اللّحظة. هوَتْ على الفور دمعة واحدة معصورةٌ بالألم ، نظرْتُ إلى عينيهِ وتجمّدتْ بنا الساعة... أيملكُ الحبّ سلطانًا على صيرورة الزمان؟! شعرْتُ بدوارٍ ورجفةٍ ممزوجةٍ بالشوق

والعتْبِ معًا. وإذا بي - أنا التي ما فارقَني هاجسُ اللقاء به في بيروت - أعثر عليه حيثُ لمْ أتوقّعْ! ما كانَ أقساها هدية وما كان أجملها!

تشابكَتْ نظراتنا والتحمَتْ. ساد صمتٌ قاتلٌ، إلّا خافقي الذي دوّتْ طبولُهُ. علا وجهي احمرارٌ وسخونة. وبنظرة حميمة يلفظ ثلاثة أحرفٍ: «ريف!!».

كان وقْعُها عليّ وقعَ مرسالٍ على توّاقة.

- ماذا تفعلين هنا؟

- هنا؟ سَلْ أين كنتُ! بلْ أينَ كنتَ حينَ خانني اللّقاء. كيفَ اغترب محيّاكَ ولمْ يبقَ لي غيرُ طيفِكَ يؤنس كمَدي.

نظرْتُ إليهِ ودمعاتي تخطّ ذكرى كلماته، وقلتُ:

- لماذا؟

- لماذا أفرغْتَ قساوة عمرِكَ وثلجها عليّ؟ لماذا أدخلْتَني هذا النفق وألبَسْتني بديعَ الكلامْ؟ لماذا رحلْتَ وتركْتني ورقةَ خريفٍ تقاذفتها رياح الشكّ فألقتها شريدةً واهيةً على رصيف الحماقة.

ظلّ مدهوشًا للوهلة الأولى أمام اعترافاتي. وبهمسٍ عذبٍ، قال:

- هل كنتِ في بيروت؟ أراكِ أجمل من الصور. لا تبكي رجلًا وُلِد من رحم المآسي. لا تبكي رجلًا ليس له في حياتك مكان.

أما قلتِ لي إنّني الأقوى؟ ها أنذا ألعبُ دور القوي. لا تبكي، عزيزتي، رجلًا خمسينيًا تجرّع القساوةَ من أيدي سماسرة السياسة. دعيني أعِشْ عزلتي، دعيني أرحلْ، فلا قدرة لي لتحمّل كحل عينيكِ. دعيني أعُدْ مهزومًا، فسماؤكِ في مكانٍ آخر وحياتك ملكُ رجلٍ آخر.

- وكيف نتحايلُ على الشوق، سيّدي؟ تُرانا نرتكبُ الحماقات؟ وهلْ منْ عاشقٍ استطاع الوقوف في وجه القدر؟ هلْ من عاقلٍ عرف جنون الحبّ و فنونه؟ هلْ من قادر على وقفِ غزوِهِ واجتياحِهِ. هلْ أعطيتَ قلبَكَ الإذنَ أنْ يعشقَ ذاكَ أو لا يعشق؟ تُراني ارتكبتُ معصيةَ حبي عن سابق إصرار وترصّد.

لا سيّدي!

أنا ما شرّعتُ أبوابي، لكنّها خُلِعَتْ.

أنا ما ركبْتُ الأمواج، لكنّها اقتلعَتْني.

أنا ما قطفتُ الورد، لكنّ شوكَهُ اختارني.

شعرْتُ أنّ المواجهة قاسية، ولكنّني أردْتُ استدراجه إلى داخلي دون أقنعةٍ. الحقيقة ولا شيءَ سوى الحقيقة.

بعد قليلٍ منَ الصمت وبتنهيدةٍ عميقةٍ، واصلَ:

- هي لحظاتٌ يا ريف، تجعلني كمَنْ يُقبِل على اللّاشيء. أعطَتْني

الحياةُ فرحًا هوَ ملكٌ لآخرينَ، فاصطدم مدّ القلب بجزر العقل. رسمَ القلبُ إشاراتِهِ الأولى على الرمال، فهبّت ريحٌ عاتيةٌ وتناثرَ الرمل ليعكّرَ صفوَ العيون. ولكنْ، يبقى الأمل؛ فالسعادة قرار.

- وهل الحبّ قرار؟ يحدثُ أنْ نضيعَ في حلاوة الممنوع، ويتغلّب الحبّ على الوجود بأسرِهِ. قلبي لمْ يرسمْ إشاراتِهِ على الرمال، بل حفر اسمَكَ على جدارِهِ نقشًا أبديًّا. فغدوتُ كالمستحيل أقفُ في منطقة الفراغ. كيف تكونُ السعادة قرارًا؟ إنْ كنْتَ سعادتي ومصدر طاقتي، فكيفَ لي باتّخاذ القرار؟

حاولْتُ الهروبَ ولكنّني عجزتُ. سأحاولُ من جديدٍ لملمةَ أجزائي التي بعثرها وجودُكُ. سأحاول نسيانك لعلّي أتذكّر حالي. سأراهنُ على الوقت، سيّدي، فهوَ كفيلٌ بالنسيان.

نظرَ إلى الخلف، ثمّ إلى الأسفل، استدار يمينًا ثمّ يسارًا كسلطانٍ مكسورٍ. عليه أخذ القرار: إمّا حبّ محرّم مستحيل وإمّا فراق أجشّ مرير.

تقصّدَ عدمَ النظر إلى عينيّ عساهُ يحزم أمرَهُ. احتدَمَ الصراعُ معَ الوقت... النداء الأخيرُ لركّاب الطائرة المتوجّهة إلى ساو بولو.

لا بد للنّسيان أنْ ينصفَني!

تواعدْنا ألّا نتواعدَ، ورحلْنا كلّ في طريقه، والحزن يعصرنا عصرًا.

دخلتُ الطائرة وكلّ ما في أمامي سرابٌ. تركتُ للقدر القرار.

إحدى عشرةَ ساعةً على متن الطائرة استجمعْتُ فيها جميعَ كلماتِهِ. أعدْتُ قراءة محادثاتِنا ألفًا من المرّات. عيناه لم تفارقاني... كانَ أجملَ ممّا بدا على التلفاز.. لُقاؤُنا ما زادَني الا تعلّقًا.

رسمْتُهُ في ذاكرتي ساعةً لأوقف الزمن، ليكون آخرَ صورةٍ تجريديةٍ أحفرُ بها ذكراهُ.

ودّعتُ به ومعه حلمًا طالما استلقى على جفوني.

المطر ينهمر بغزارة في كامبريو. هنا في الصيف تمطرُ أكثرَ من الشتاء. دخلتُ مملكتي بعد سفر طويل وأليم. تمدّدتُ في سريري، احتضنتُ جاد وكريم وألين، وأخذْنا نتحادث ونضحك حتّى آخر اللّيل، وكأنّني أهربُ من شيءٍ ما.

كان عليّ الاقتناع بأنّ هذه المحنة لن تستمرّ. لن أبحث عن الأسباب.

يحدث أن ترميَ بنفسكَ إلى الهاوية.

يحدثُ أنْ تشعرَ بالضياع وكأنّك في دوّامةٍ من الأهواء.

يحدث أن يعتصر قلبَك شوقٌ وألمٌ دونَ أملٍ بلقاء.

أطلّ الصباح حزينًا، وبعدَهُ اللّيل مملًّا. يدخل أمين غرفتي، يضمّني كأنّهُ يواسيني لحبٍّ ضاع منّي!

«أراكِ شاردةً وحزينةً منذُ وصلتِ، لا بدّ أنّ السفر أجهدَكِ! قد مرّ يومانِ وأنتِ على هذه الحال».

وقبلَ أنْ أجيبَ أو آتيَ بأيّة حركةٍ، أمسكَني منْ حولِ خصْري وشدّني إليْهِ وراحَ يقبّلني بحرارة الملهوف. رماني على الكنبة أمام سريري، ثبّتَ يديّ إلى الأعلى فوقَ رأسي، نظر إلى عينيّ وقال: «اشتقْتُ لهذا الجسد المثير، اشتقتُ لنهديكِ، لشفتيكِ». هبّ يتمرّغ ويتمرّغ... كان يعلم أنّني أعشق هذا الأسلوب، أن يجعلني أتأوّه لذةً قبل أن أخلعَ ثيابي، حتى أصل إلى مرحلةٍ أفقد فيها السيطرة فأرجوهُ. متى سيلِجُني؟ ولكنْ، كلّ هذا لم يحدثْ، خلعتُ ملابسي مستعجلةً، قبّلته... جاء تأوّهي زائفًا. شعرْتُ أنّه بدأ يغرقُ، فزادتْ حركتي صعودًا ونزولًا بغير توقّفٍ إلى أنْ بلغ نشوتهُ.

حُزني أنساني لذّتي وجسدي وأنوثتي. فقدْتُ أيّة رغبةٍ في ممارسة الحبّ. أستفيق في وسط اللّيل، أحدّق إلى السقف، في كلّ زاويةٍ من زوايا غرفتي، وتمرّ الأيام وتظلّ رياحُ الأسى عاصفةً بوجداني. ما عاد للشّمس التي طالما أشرقتْ في أهدابي ألقٌ. جسدي المتطلّب غائبٌ عن الوعي واللّاوعي، وروحي المَرِحة كئيبة على غير عادةٍ. أستذكرُ كلّ تفاصيل لقائنا، فيوقعني الوهنُ في براثنِ الشوق كغزالةٍ طابَ لحمُها لصائدها.

«لستِ طبيعية يا ريف. مُذْ عدْتِ وأنتِ حزينة شاردة!» سألَتْني ميراي في إحدى سهراتنا، فيما كان أمين جالسًا مع أخيها وصديقِهما كاميلو يتابعون مباراة كرة قدم. تبسّمْتُ وقلت: «مجرّد وقت!».

قالتْ بدهشةٍ وهيَ تنظر إلى عينيّ الدامعتينِ:

- لمْ أفهمْ ما تقصدين. كفّي عن التحدّث بالألغاز والرموز.
- أراهن على الوقت، صديقتي، عساهُ ينصفني بنعمة النسيان!
- أنتِ غامضة! لا بدّ أنّكِ تخفين شيئًا.
- كيف أخفيهِ ما دمتِ لاحظتِ ما لاحظتِ؟! ليس بوسعِ المرء إخفاءُ الحقيقة.

في الواقع، ما عدْتُ أحتمل سرّي وحدي؛ كان حبّهُ أكبرَ من أن يحملَهُ سرّ أو يخفيه صندوقٌ صغيرٌ على هيئة قلب. لماذا نلتزم الصمت حين تغمرنا الرغبة بالبوح؟ لماذا نختزن الوجع؟ كي لا تهزأ بنا الحياة؟ نحنُ نصارعُ القدرَ لنفوزَ بالسكينة، وليتنا نعي أنّ السكينة صنيعة الإنسان الحرّ وأنّ ثمنَ الحرّية حياةٌ أو موت. وفي اللّحظة التي تخال نفسَكَ الأقوى، تلقى نفسَكَ مهزومًا أمام حربٍ عاطفيةٍ سلاحُها الخطيئة. لذلكَ، عليها أن تنتهيَ قبلَ أن تبدأ، بتسويةٍ مُربِحةٍ للواقع ومُفشِلةٍ للقلبِ.

ترى، أهذا يقيني، أم هذا ما أريدُ إقناعَ نفسي به؟ هل حقًّا انتهتْ قصّتنا؟

اعتدْتُ الذّهاب إلى السوق، صرتُ كلّ يومٍ أعودُ وفي يديّ الأكياسُ والأغراضُ. اقتنيتُ الأوانيَ والثياب و«الكريمات»... ما أحتاجُهُ وما لا أحتاجُه. عندما رأتْني ميراي، رمقتْني بنظرةٍ حادّة وقالَتْ بذهول: «ما عهدْتُكِ مبذّرة! ما بالُكِ؟» عادَتْ لتذكّرني بما في بالي وما فطنَتْ أنّني أهربُ من وحدتي وأحاول إلهاءَ نفسي. أريد أن أمحوَ من ذاكرتي بؤس مشاعري. عدْتُ إلى صفوف التأمّل، فوجدْتُني شاردةً، غائبةً إلا عن صورة وجهِهِ وذكرى كلماتِهِ. ما أقساهُ منْ زمنٍ وما أمرّهُ من نصيب!

«ما فارقَ روحي رسمُكِ، ولا فارقَ عينيّ كحلُكِ، أيّتها التائهة بين الورد والورد! أصبحتِ تسكنينني».

الساعةَ الواحدةَ بعدَ منتصَفِ اللّيلِ، بعدَ مرورِ شهرين وثلاثة أيام وساعة. تلكَ هي رنّةُ الـ Messenger. أعرفُ لحنَها. إنّهُ هوَ، إنّهُ قدري الملغوم بألف لا. إنّهُ نورٌ يحرقُ عتمتي. إنّهُ أنا وما أنا من دونِهِ هو؟

في يدي كتابٌ مملٌّ عن الحربِ اللّبنانية، لأنّني اتّخذْتُ قراري ألا أقرأ رواياتٍ عاطفية في هذه الأيام، لعلّي أساعد روحي على التخلّص من أنينها. رميتُ الكتابَ جانبًا، أزحتُ الغطاء عنّي بحركةٍ لا إرادية، نهضْتُ وجلسْتُ وقلبي أجراسُ كنائسَ تدقّ.

انهمرتْ دموعي ممزوجةً بشوقٍ وبفرحٍ.

لم ينسَني!

إنّه يشتاقُني!

أردْتُ الردّ على الفور، ولكنّني لمْ أعدْ قادرةً على الرؤية، تلاشَتْ شاشةُ الخلوي تحت سحابة دموعي.

بدأ جسدي ينتفض، شعرْتُ للحظةٍ أنّني أملكُ العالمَ ولا أملكُ شيئًا. كتبتُ بأحرفٍ من وجع:

«أشتاقُكَ حتّى الموت. قد أكون فقدْتُ صوابي، قد أكون أضعْتُ البوصلة واتّجهْتُ نحوَ المجهول.

أعلم أنّني أهدم مملكتي بجنوني، وأعلم أنّني أرسمُ مستقبلًا ممطرًا بالألمِ والعذاب، وأعلم أنّني أضيعُ بين المنطق واللّامنطق.

أعلم وأعلم وأعلم...

إنّي أحبّكَ!».

- يا امرأةً أتلفَتْ كلّ تفكيري، تحدّيتُ نفسي كثيرًا، تحاشيتُ ضعفي كثيرًا، صارعْتُ شوقي كثيرًا. ما نجحْتُ يومًا وما كانَ نسيانُكِ سهلًا. أعرفُ أنّ الطريق معَكِ محفوفٌ بالأخطار، وأعلم أنّني أبحرُ في عينيكِ دون أمل. أعترفُ أنّني ضعفتُ أمامَ سحرِكِ يا حوريّةً منْ عميقِ الخيال أتَتْني. امرأةٌ من غيمٍ وشتاءٍ أنتِ، تمطرينَني لهفةً وفرحًا. امرأةٌ من ربيع وصيفٍ أنتِ، تولعين قلبي دفئًا.

عاد ليؤنس ليلي، ويجمّل صباحي، ليمدّني بِطاقتي وحيويتي، كطفلةٍ تحتاجُ المشاغبة واللّهو والدلَع. عاد عاصي ليملأ فراغاتِ أيامي ويكون هو أدقّ تفصيلٍ من تفاصيلِ حياتي. حاولتُ تفاديَ عبثية الأقدار

وجنونِ الحياة. كانَ يُفترَضُ ألا أعودَ، فأنا أسمع رجعَ خطواتي الثقيلة، ولكنّ شيئًا منه كان فيّ، ربّما كان هو دليلي الوحيد إلى معابر روحي.

أيّ حبّ هذا الذي امتلكني؟

أي نفق أدخلْتُ فيه قلبي؟

أنا امرأة أسدلْتُ الستار عن عقلٍ كان يومًا زينتي.

أنا امرأة أيقنت أنّه مخلوق من الممنوع وتمردْتُ على الممنوع.

أنا امرأة أحبّتْ فهوَتْ.

أنا امرأة من بريق عينيهِ وُلدَتْ، وفي أنفاسه أموتُ وأُدفَن.

هكذا، بكلّ بساطة، اجتاحني حبّه، كأنّه جاء لينتشلني من القبو الذي أنا فيه، ليرميَني في حقل ضوءٍ تكوّن من شغفٍ وحنين.

تنفّسْتُ عميقًا لدرجة أنّي شممْتُ رائحة عطره، أغمضتُ عينيّ، فكان هو بكل ملامحه الحقيقية. شعرتُ كأنّي طائر مهاجر، أبحث عن دفء ما، عن حقول بنفسجية أرمي لها نفسي وأسكنها شوقي. كان هو مَن يحدّد إيقاع روحي، أقتفي ظلّها الذي يتسع ويضيق بحسب كلامه معي. كمْ مرّة وقفتُ على حافة عقلي وجدتُ نفسي مجردة من كل شيء، كخارجٍ من كهف وقدْ لسعَهُ النور! أتساءل كيفَ أيقظ الرماد الغافيَ في فؤادي، وكيف اختار إشعال ما طاب له، وكيف عبث بنظام فصولي وأيامي!

عدتُ إلى البيت ذاتَ غروبٍ ماطرٍ، لأجد أمينًا مستلقيًا على الكنبة، وجهاز الكومبيوتر بين يديه، يتابع البورصة كعادته. دخلتُ المطبخ، قمتُ بترتيب المائدة وتحضير العشاء. اجتمعنا حول المائدة، ابتسمْتُ وبلعْتُ رغبتي بالبكاء. أحسَسْتُ أنّني مرهَقة، ذهبتُ إلى غرفتي وتمدّدْتُ على سريري. نمتُ نومًا عميقًا، كأنني روح هائمة فوق بساطٍ من الغيم. منذ فترة وأنا أشعر برغبة كبيرة للجلوس وحدي أو للنّوم. أصبحْتُ أحبّ وحدتي وكأنني أعيش مع عاصي في عالم خاصّ بنا، أنتظر رسائله، أشاركه أفكاره.

في صباح اليوم التالي، وفيما أنا في حالٍ من الصفاء مع فنجان قهوتي، دخلتْ عليّ ميراي تصرخ كالمجنونة: «ريف، ريف! سأسافر إلى Gramado مع غوستافو». كانتْ ميراي صاحبة محلّ لبيع الثياب النسائية، وقرّرَتْ أن تذهبَ إلى غرامادو لشراء المعاطف الجلدية. اتّفقتْ مع حبيبها ليرافقها في رحلتها، وتمضية ثلاثة أيام لوحدهما.

جميلة غرامادو. لعسلِها طعمٌ ممزوجٌ بالحبّ، سمّيَتْ مدينة الشوكولا والعسل لكثرة معامل الشوكولا فيها وجمال طبيعتها. لها دهاءٌ يوقعكَ بفتنة زيارتها، توهمكَ تلك المدينة أنّك اكتفيتَ حبًّا، فتغويكَ في كلّ ممرّ وزاوية بقصّة عشق أخرى، تبرم معها صفقة عسل دائمة. تعود أدراجكَ وأنتَ تدرك أنّها نالتْ جزءًا من ذاكرتكَ إلى الأبد.

- الساعة تقترب من التاسعة ... يلّا قومي.
- دعيني أشربْ قهوتي بهدوء.
- ايه دخيلِكْ، مخِمْخي! بدّي أفكارك الجهنّمية تْخَلّي غوستافو يعْبدني بعدْ هالرحلة.

تضحك وتستدير نحوي، تضع يدها على خصرها وتواصل: «لازم أضعف شوي، حاسّة حالي نصحاني».

- لا شكّ أنّكِ ستعودين مع خمسة كيلو زيادة، في كلّ زاروب محال للشّوكولا، عند كلّ رصيف pão de queijo . معروفة غرامادو بالفطور café colonial، ومساءً بـ... تقاطعني ضاحكة: «مساءً بِحْرُقْ كِلْ شِي».

استلقتْ فوقَ سريري وبدأتْ برسم الخطط. «هل أتصل بالأوتيل

وأطلب تزيين الغرفة بالورود والشموع؟ لا لا. أصبح هذا تقليديًّا جدًّا. هل أطلب فرقة تقف أمام الأوتيل وتغنّي لنا سرتانيجا قديمة مثل أغاني روبرتو كارلوس؟ ما بالكِ يا ريف، لستِ على ما يُرام! شاردة ولا تنطقين بكلمة. زهّقتيني ولو!».

نهضْتُ واتّجهْتُ إلى الحمّام، وقفتُ أمام المرآة ومازالتْ ميراي تحكي دون توقّف. انتبهْتُ إلى ملامحي الشاحبة، انتابني إحساس بالحزن وظلّتْ أفكاري تطاردني، فيما تستمرّ ميراي بخططها.

كانَتْ ميراي تتكلّم ومساحة البياض في عينيها السوداوين امتلأتْ فرحًا. راحتْ تحدّثني بلهفة طفلة خارجة في نزهة إلى مدينة الملاهي. أهو الحبّ الذي يجعل المرأة سعيدة إلى هذه الدرجة أم الممنوع الذي تعيشه ميراي وأنا وغيري من الكثيرات؟

أستدير وأقف على زاوية الباب، أسند ظهري وأضع يديّ على حافّة المغسلة. أرسم ابتسامة هادئة وأقول: «لكل امرأة Fantasia معينة، أنتِ بمَ تحلمي Qual é a sua fantasia؟

- Como assim Riff? Não entendi. (لم أفهم قصدَكِ).
- كلّ امرأةٍ تحمل في داخلها رغباتٍ تقمعُها لأسباب متنوّعة، تتمنّى أن تطبّق حقيقة سيناريو تعيشه دائمًا في خيالها. أنا مثلا a minha fantasia، هي الرقص ستربتيز في أحد النوادي اللّيلية.

تشهق ميراي وتضع يدها على وجهها وكأنّ مصيبة ما حدثَتْ.

- هل جُننتِ؟
- قمّة الإثارة أن تجعلي أنوثتك تنطقُ، تتمايَلُ وانحناءاتِ جسدكِ أمام عيونٍ تقدح رغبة، وأمام هوس الحاضرين للفوز بك، تغدق عيناكِ اشتهاءً لرجلٍ واحدٍ ينظر إليك من خلف الجميع واثقَ اللعبة يجلس ملكًا.
- مجنونة أنتِ وأفكاركِ! هل تريدينني أن أرقص له في نادٍ ليليّ ثمّ أخرج معه أمام الجميع؟
- Essa é a minha fantasia. Procure a sua! (إنّها نزوتي الجامحة. ابحثي لك عن نزوة).
- لا لا عزيزتي، ابحثي معي عن شيءٍ آخر. قد أرقص له dança do ventre (رقص شرقي)، ولكن حين نكون لوحدنا. أظنّ ذلك سيعجبه!

أقضي نهاري مع ميراي، نخرج إلى الكورنيش، نتغدّى في المطعم اللبناني، نعود ونقف على الرصيف. تشعل ميراي سيجارة وتقول: «صرفْتُ حياتي أراعي عادات أهلي وتقاليدهم. في لحظة من اللّحظات، وجدت نفسي على عتبة عمر يهرب بي بعيدًا عن المظاهر الكاذبة. قد أكون قمتُ بأفعالٍ لم يجدر بي فعلُها ولكن، هل تصدّقين يا ريف؟ لا يراودني أدنى شعور بالذّنب. فقط أخاف على أبي أن يصيبهُ مكروهٌ إنْ علم».

تكاد الكلمات تفرّ من فمي، هل أحكي عن حالي وذنبي؟ ميراي تشكو وأنا أتهالَكُ وأفكّر: « لا بدّ أن يشاركَني أحدٌ ما سرّي. هل أبوح؟». أصمتُ، أغمض عينيّ وآخذ نفسًا عميقًا. لا يستطيع الإنسان أنْ يملك كلّ شيءٍ، هي سنّة الحياة عزيزتي وعلينا أن نتعلّم كيف نجاري الواقع رغم قساوته أحيانًا.

يصل أمين إلى المنزل، يسألني ماذا أعددتُ للعشاء، يقبّل ألين ويسأل عن جاد وكريم. نجلس حول المائدة، نتبادل الأحاديث الطيبة، نضحكُ، أبتلع غصتي، أحاول أن أحافظ على صورتي.

أنهي القسم الأخير من رواية o amor não tem leis للكاتبة البرازيلية Camila .Moreira أغلقُه، أضعُهُ بجانب سريري، تحت ضوء المصباح الخافت وأكتبُ لعاصي: «أعطني أسماء كتب مهمة؛ صديقتي تقيم في بيروت وقد طلبتُ منها شراء بعض الإصدارات الجديدة لي». أجابني ضاحكًا: «زلّة عمري، رواية جديدة من دار العشق الممنوع للطباعة والنشر، للكاتب متيّم المجنون... تجدينها في جميع المكتبات». ضحكتُ وقلتُ: «أنتَ بالحقّ زلّة عمري. كيف كان يومكَ؟».

- أعمل منذ الصباح لإعداد حلقة حول الحراك المدني الحاصل والألغام المزروعة حوله من نظامنا السياسي!

- النظام السياسي المستورَد من الطائف، والمُعلَّب على قياس الطوائف، لا على قياس الوطن. وأيّ حراك يا عاصي؟ البلد مُتْخَم بالطائفية، ورجال دولتنا إقطاعيون، كلٌّ منهم لديه ناسُهُ ومناصروه، وَهُمْ للأسف غالبية، فلا بدّ من استغلال الحراك.
- الطائفُ كرّس الطوائفَ ولكنّ الطوائف سابقة لظهور دولتنا، وهنا تكمن المعضلة: الطوائف تعتبر نفسها أولوية على الدولة، ولكن الفساد المستشري جمع الليبراليين والشيوعيين والمستقلّين تحت شعار واحد، ويبقى الأمل عند البعض بالابتعاد التدريجي عن هذا الزعيم أو ذاك، معوّلين على الحالة التي وصلتْ إليها كلّ الطوائف دون استثناء.
- دعْنا من السياسة. قلْ لي كلامًا جميلًا قبل أن تنام!
- كم أحتاج إلى سطوة أنوثتكِ، تسرقني من عتمتي ووحدتي، وترميني بانسيابٍ على انحناءات جسدكِ.

- أساحرٌ أنتَ سيدي؟

يقع سحره عليّ باحترافية المنجّمين... اجتياحٌ فاحتلال. يوقظني حبّهُ كلّما أثقلني الذّنب. تتشابك هواجسي وتنتصر عيناه. رغم غموضهما فيهما شيء من ضوء الحياة.

جلستُ على الأريكة المطلّة على الحديقة، تأمّلتُ الأشجار والأزهار. أغمضْتُ عينيّ وأخذتِ الأفكار تدور في رأسي: ما أعيشه شيءٌ غريبٌ، حتّى أنا لا أفهمه! حياة جميلة وقاسية في آن معًا. ربّما أحتاجُ إلى زمن آخر أو حياة أخرى حتّى أفهم لعبة القدر، وأعيَ مخاطر تلك المسارات التي أوقعتني بدهاليزها.

إنّ الانسان لا يختار الحبّ، ولا يقوى على إلغائه. كنتُ أخال العقل قادراً على قلب الموازين، لكنّني أدركْتُ، بعد انهزامي، بأنّ هناك إشاراتٍ غيرَ تلك التي رسمها لنا العقل أو المجتمع، لا نملك سلطانًا عليها. الأقدارُ هيَ الأقدارُ! «هل يملكُ النهرُ تغييرًا لمجراهُ؟».

كان الطقسُ غائمًا يتهيّأ للمطر. انعقدتْ في السماء غيومٌ سوداء وأخذ البرق يرسل إشاراته الصوتية. ألقيتُ نظرة على الحديقة، فإذا بالأشجار تهتزّ أوراقُها وتتمايل أغصانُها. وضعتُ المنديل حول عنقي وقبّعتي السوداء على رأسي، وهممتُ بالخروج. سرْتُ في الشارع

تعصف بي الريح، فيقشعرّ جسدي ويرتعش. وما لبثَتْ أنِ انفجرتِ السماءُ مطراً... أتُراها تغسلني من أفكاري التي أبتِ الاستسلام ولاتزالُ تصرّ على إرباكي.

مشيتُ حتّى الشاطئ. البحر يهيج ويثور والأمـواجُ تتلاطم متطاعِنةً. نظرتُ إلى السماء بعينين نصفِ مفتوحتين، امتزج فيهما حلوُ المطر وملحُ الدمع. الكحلُ سال عبر المآقي يثقلها مرارةً. فحنيتُ رأسي بين كتفيّ، والريح تصفع خدّيّ.

أحيانًا نُقدم على أشياء لا نقصدها، ثم نسترسل بالتقدم إلى أن تصبح أعمالًا قد نندم عليها لاحقًا. تبدو ملامحُ الحياة غائمة، ولكنّنا في حالةٍ بحثٍ دائم عن مسالك النور وبريق الخلاص. كلّما أصابتْنا قساوة اليأس تَخفَّيْنا في ظلال الحياة ولبسْنا ثوبَ التمرّد.

ودّعت أمينًا، كعادتي كلّ سنة في شهر تموز. وصلْتُ المطار في رحلتي الأولى من إيتاجائي إلى ساوبولو. صعدْتُ السلّم الحديدي إلى باب الطائرة، تسبقني أفكاري وهواجسي. الطريق إلى لبنان مفعمة بشوق اللقاء والخوف من المجهول. أسئلة كثيرة تزاحمتْ في رأسي وجعلتْني مستيقظة طوال الرحلة. كانتِ الساعات تطول والصبر يواسيني كأنّما يقول: «انتظري.. لاحقة ع الهمّ».

وصلْتُ بيروت في اليوم الثاني الساعة الرابعة بعد الظهر. فورًا توجّهتُ والأولادَ إلى بيت أمّي حيث الهرجُ والمرجُ، أولادُ إخوتي بانتظار جاد وكريم وألين. أمّي تحضّر الغداء، أخي سليم يتكلّم على الهاتف بصوته العالي، وزوجته تحاول إسكات ابنتها الصغيرة. المائدة باتتْ جاهزة لجمعِ شملٍ تفرّق على مضض. السياسة، كصحن الزيتون، ضيفٌ دائمٌ على كلّ مائدةٍ عندنا. أمّا الخبر المُطَمْئِنُ فدخيلٌ علينا، غريبٌ. ننتهي من العشاء وينصرف كلّ فرد إلى بيته. تفقّدْتُ هاتفي الخلوي لأكثر من عشرين مرّة، بانتظار رسالةٍ منه. السفر بعثَ في أضلعي التعب الشديد ولكنّ غيظي أقلقني والقلقَ زادني عصبية.

كان عليه أن يكلّمني ساعة وصولي. هنا تكمن تفاصيل الحبّ التي تعشقها كلّ امرأة.

بعد مرور أربع ساعاتٍ، وصلَتني رسالةٌ من عاصي:

- الحمد لله على السلامة، حبيبتي.

قبل أن أعاتبه، تابع:

- انتظرتُ إشارتكِ!

- أي إشارة؟

- أنكِ وصلتِ.

- ولكنّكَ تعلم موعد قدومي. انتظرْتُ أن تكلّمني لحظة هبوط الطائرة!

- لم أرِدْ إحراجكِ.

- إحراجي؟!
- أعطيتُكِ الوقتَ الكافيَ معْ أهلكِ.
- أعطِني الوقت الكافي لأحبّك!
- لك العمرُ إنْ شئتِ! أراكِ غدًا؟
- أين؟
- في مكتبي.
- أين مكتبك؟
- في منزلي.
- عاصي!!
- عيونو.
- بدأتُ أخافُكَ!
- لا تخافي يا ريف. ستفترشينَ كُتُبي، وتعلّقين عطرَكِ على زاوية المدخل. ستكتبين على جدار بيتي قصة امرأة تغرّد خارج قفصي. ستشربين معي القهوة، وسأقيّد كلّ رغباتي بسلاسلَ من حديد. لا بدّ أنّكِ مرهقة، سأدعُكِ تنامين، وأنا سأطرق باب الصبر، لعلّه يرحمني حتّى الغد!

الساعة تشير إلى الثامنة والنصف صباحًا، أسمع «حرتقة» أمّي في المطبخ، أدخل عليها وعيناي شبهُ مغمضتين.

- صباح الخير.

- من وين الخير يا أمّي؟ تعي شوفي وَين صاروا داعش! الله ياخِدُن.

- صباح النور، أمّي!

جثوتُ أمامَها على ركبتيّ، فضمّتني إلى حُجرِها.

الحروبُ استثمارٌ ممتازٌ لمصلحة تجّار الموت والجثث. نجح الكيان الصهيوني بتحييد القضية عن فلسطين، ونجح الغرب بتفريقنا إلى مِلل متصارعة ومتناحرة، وغرقنا في وحول الدم والتقاتل.

أدرتُ الراديو لأسمع صوت فيروز، وخرجْتُ إلى الشرفة، أصحب معي فنجان القهوة. إنّ بسمةَ الأمل تولَد من جميل الكلام، ومن ربيع الألـوان، ومن عطر العطاء ومن بريء الأحلام. سئمْنا مشاهد القتل، أتعبَتْنا مشاهدُ البحث عن الأمان والحرية.. عن وطن بديل ولقمة عيش كريمة. أضنانا الوقوفُ مكتوفي الأيدي أمام الظلم والتبعية، وحدَنا والموت ندور في حلقة فراغٍ فارغة. فقدْنا عادة الفرح ونسينا طعمه وشكله! أصبحنا لا نجيد إلّا متابعة كوميديا السياسة، نغفو ونحنُ نضمّ وسادة الرجاء بغدٍ أفضل. نصحو ونحن نلبس ثوب الحداد على الوطن.

الساعة العاشرة صباحًا... أخبرْتُ أمّي أنني أنوي الخروج لزيارة صديقتي!

- ولو يا إمّي! بعد ما وصلتِ.

- ضَروري سَلِّمَا غَرَضْ.

لبسْتُ فستاني الزهري الفاتح، وقفْتُ أمام المرآة أتأمّلُ قلقَ عينيّ: «هل حقًّا سأذهبُ للقاء عاصي؟» أسدَلْتُ شعري الأسود، ومرّرتُ أصابعي بين خصلاته الناعمة، أرفعُهُ قليلًا ثمّ أعيدُهُ ليغطّيَ طرفَ جبيني. انتعلتُ حذائي salto alto (الكعب العالي)، وحاولت أن أخفيَ علامات قلقي، رسمْتُ ابتسامة مشوّشة وخرجْتُ من المنزل بخطًى غيرِ ثابتة.

ركنْتُ سيارتي في السوق (Mall)، صعدْتُ من الموقف، إلى الطابق الأوّل، سلكْتُ المول حتّى بابه الأخير، خرجْتُ إلى الشارع الخلفي، وانتظرْتُ التاكسي.

سألني السائق إلى أينَ؟

كدْتُ أجيب: «إلى الهاوية!».

نظرْتُ إليْهِ بعينين شاحبتين حزينتين، وكأنّني أتوسّلُهُ أنْ ينصحَني: «عودي يا ابنتي! فالمجهولُ مخيفٌ، والظلامُ مُرعِبٌ، والكذبُ خداعٌ.

تردَّدتُ، تراجعْتُ خُطوَتينِ إلى الوراء، رفعْتُ عن عينيّ خصلةَ شعري وكأنّني أرفع همًّا أثقلَني. تلفّتُّ يمينًا ويسارًا، تقاذفَتْني كلّ الأفكار دفعةً واحدة، وإذْ بي أعودُ وأقتربُ ثمّ أقولُ بغصّةٍ ملؤُها الشوق:

الحمرا، قريطم!

وصل التاكسي بعد أن استعمل كلّ الطرق الفوضوية، من قَطْع الإشارة الحمراء، إلى قطع طريق الاتّجاه الآخر، حتّى لو كان السير متوقّفًا.

طوابيرُ من السيارات، فوضى وشجاراتٌ... كذا هيَ المَشاهدُ والصورُ اليومية لطرقاتِ العاصمة بيروت. يكادُ لا يمرّ يومٌ ولا تفجع به عائلة أو نسمع خبرًا مؤلمًا عن وفاة شابّ أو صبية بحادث سير، من فانات إلى درّاجات هوائية، إلى المُشاة. كلّ يمرّ ويمشي على سجيته، فغيابُ القانون والمحاسبة في بلدٍ اعتادَ الفوضى أصبح أمرًا عاديًّا. يطبَّق قانونُ السير بمزاجية ومحسوبية.

هذهِ حالُ وطني: غيابُ الثقة بالدولة يولّد التبعية، والتبعية تولّد الفوضى والهمجية.

إنّها الحادية والنصف صباحًا. توقّفَ السائق وقال:

– هذا هو العنوان، على ما أظنّ. تأكّدي يا ابنتي، فكما تعلمين لا أرقامَ ولا عناوينَ دقيقة في لبنان.

تبسّمتُ وقلتُ: شكرًا لكَ، سأتدبّر أمري.

نزلْتُ من السيارة وبسمة على شفتي ترتجفُ كنجمةٍ في أوّل الشتاء. لهفتي للقائه قادتْني إليه وأوصدتْ عليّ أبوابَ الرجوع... كيفَ عساني أهرب وأبواب العشق ثقيلة صلبة؟ نظرْتُ إلى مدخل المبنى:

رجلٌ أسمر البشرة تحدّق إليّ عيناه الحادّتان، قصير القامة ونحيلٌ يتراوح عمرُهُ بين الثلاثين والأربعين. سألَني بلباقةٍ:

- هل من خدمةٍ، سيّدتي؟
- نعم. شكرًا لك. هل يسكنُ الأستاذ عاصي هنا؟
- نعم سيّدتي. في الطابق الخامس، جهة اليسار.
- شكرًا لك.

أطلبُ المصعد وأنتظر وصوله. عيناي تائهتان خلفَ النظّارة الشمسية، أتلفّتُ يمينًا ويسارًا وقلبي يخفقُ دقّاتٍ متسارعة. دخلتُ المصعد، تفقّدْتُ هيئتي في المرآة، وما هي إلا ثوانٍ حتّى صرتُ عندَ بابه. التردّد يتملّكني والشوق في قلبي يغلي. أطرق الباب ويفتح لي بصمتٍ. وحدَها حدقاته تكلّمتْ ووحدَها ابتسامتي فهمتْ! يمسكني بيدين سمراوين قويتين كالعاصفة، ويسحبني إلى صدره. تمنّيْتُ في هذه اللّحظة بالذّات أنْ يكون ساحرًا حقيقيًّا، يقع عليّ سحرُهُ فيحكمُ الزمنَ أن يتوقّف، ويحكمُ عليّ بسجن مؤبد. بقيْتُ في أحضانِهِ عاجزةً عن الحراك أو حتّى التفكير في إغلاق الباب، غيرَ آبهة لجيرانه... لم أكنْ أريدُ إفسادَ سحر تلكَ اللّحظات.

أدخل أمامه بخطًى ثقيلة، متوترة. بيتُهُ حنونٌ دافئ. غرفة الاستقبال مقاعدُها ليّنة ووثيرة، حيثما مالَ ناظري أرَ رفوفًا مرصّفة بالكتب. في

وسط الغرفة طاولةٌ تراكمتْ عليها الصحف. ألقي حقيبتي على الأريكة، وأجلس على أخرى مقابلة لها.

- أيّ ساعةٍ استيقظتِ؟؟

هل نمتُ وأنا أعلم أنّني على موعد مع جريمة عشقية؟

أضحك ضحكة تائهة وأجيب: «الثامنة والنصف».

كانتْ محاولةً منْهُ لتلطيفِ الجوّ وإبعاد اللّحظات الحميمة التي كانتْ قدْ بدأتْ تلوحُ بشغف نظراتنا. بقيَ واقفًا يتأمّلني وكأنّه يبحثُ عنْ تفاصيلي. دقّ ناقوس الخطر... عيناهُ، نظراتُهُ، يداهُ... كلُّ شيءٍ فيهِ يشدُّني. هلْ يشعرُ بالشيءِ نفسِهِ؟ هلِ استطعْتُ أنْ أشعلَ داخلهُ بعضَ النار؟

قلتُ بصوتٍ خافتٍ: «أينَ القهوة؟ أنا لمْ أشربْ بعدُ».

يقتربُ قليلًا نحوي، يجلسُ على الأريكةِ إلى جانبي، بينما أنظرُ أنا إلى الباب أمامي عساهُ يفتح درب الخلاص.

نظرتُ إلى عينيه وكأنّني أحتمي به من شبح الاستسلام، وكأنّني أرجوهُ الرحيل! لا، أرجوهُ البقاء! أو لعلّي ما عدْتُ أدري ما أريدُ.

الخوفُ يجتاحُني ويضعفُ روحي. أيُّ جنونٍ أتى بي إليه؟

وفيما أنا أمامَهُ ويداهُ تتهيّآن لعناق يديّ، وفيما عيناه تسافران بي إلى حيث الخيال حقيقة مرجوّة، أخذتُ نفسًا عميقًا، تنهّدتُ تنهيدة اليقظة، وقلتُ:

- عاصي، القهوة !!

وقفتُ وأمسكتُ كتابًا كان على الطاولة إلى جانب الأريكة، وسألتُهُ: «هلْ انتهيتَ من قراءة هذا الكتاب؟ أأعجبكَ؟ عمّ يتحدث؟».

ضحك وأسند ظهره إلى الأريكة، أمسك يدي وقال: «ريف، لا تهربي! دعيني فقطْ أشعر بكِ بين أحضاني».

كطفلةٍ صغيرة تكوّمْتُ بين يديهِ، داعبَتْنا نسماتٌ باردةٌ، واحتجب القلق خلف سحاب أنفاسه وعطره. أخبرَني عن حاله وعن شغفه في القراءة. قرأ عليّ بعضًا من مقالاته، وضحكْتُ حين قال: «أتذكرين مقالتي هذه؟ كتبتُها منذ سنتين! هذا ما نراهُ اليوم!».

- أنتَ تخمّن أيضًا؟

- لا. أنا أحلّل الواقع عن طريق المعطيات.

قالَ لي وهو يودّعُني على بابِ بيتِهِ: «غدًا نلتقي».

«صباحًا»، قلتُ له بشيء من الدلع.

- حبّذا لو تبقينَ إلى الغد.

عدْتُ أدراجي بثوب العفّة، وكأنَّ الخيانة هي فقط بامتلاكِهِ لجسدي. ألمْ يمتلكْ روحي؟ عقلي؟ حتّى نفسي؟!

عدْتُ وأنا تائهة في خِضمّ الأسئلة، يساورُني الندم.. يهزمُني الحبّ. أودّ لوْ أستطيعُ الهروبَ... ينهار صمودي عند أوّل نبضة شوق.

- أنتِ خائنة يا ريف!

- أنا عاشقة!

- أنت ملْكٌ لرجل آخر.

- أنا ملْك نفسي.

مَن صنّفَ الخيانة؟ مَن أعطاها صفة الغدر والطعن. ألمْ يدرِكْ أنّ للإنسانِ قلبًا يخفق حين يشاء دون إذن أو خبر؟ يقول الباحثون إنّ كلّ واحدٍ تقريبًا يفكّر بالخيانة أقلّه في مخيّلته. يعيش الأزواج في هذه التناقضات ويعرفون أنّهمْ سيواجهون دراما داخلية. فيما يخصّ خيانة المرأة، يتّفق الباحثون والمختصّون النفسيون على أسباب عدّة تدفع المرأة إلى الخيانة. ثمّة زوجاتٌ لا يشعرْنَ بالعطف والحنان فيكنّ عرضةً للخيانة معْ أيّ شخصٍ يقترب منهنّ ويشعرهنّ بأهميتهنّ، كما أنّ هناكَ سيداتٍ غير ناضجاتٍ نفسيًا يقُمْنَ بفعل الخيانة كردّة فعل على خيانة الزوج لهنّ، وهناكَ نوعٌ آخر من السيدات المتباهيات بجمالهنّ، ما يجعلهنّ يتمرّدنَ على أزواجهنّ، فيتّجهنَ إلى الخيانة. ومنهنّ مَنْ يتّجهنَ للخيانة كنوع من أنواع الدعم الاقتصادي أو الاكتفاء الجنسي.

يا لَترف التحاليل النفسية والاجتماعية! يا لترف الأقاويل والتخمينات! أحيانًا، لبساطة الأمر، لا تُدركهُ العقول.

إنّه الحبّ...

يعروكَ بأناقة، وكلّما تحدّيتَهُ لثَمَكَ بمكرٍ وقذفَ بك في المكيدة. أصغر تفصيلٍ في لحظات العشق أكبرُ من العاشق نفسه. لا تفكّرْ في

رفعِ هامتكَ أمامَ جبروت العشق، حتمًا ستقعُ فريسة الشوق، وسيأتيكَ جامحًا صارمًا، فهوَ يملكُ طغيان تسونامي.

أمنح عقلي فرصة المرافعة، فيقول: «ألمْ تدركي بعدُ أنّ للإنسان ملَكَة القرار؟».

- أيّ قرارٍ تملكه قشّة واهية في وسط العاصفة؟!

حوارٌعقيمٌ هوَ، جدلٌ بلا جدوى. كنتُ أحاول أنْ أقنع نفسي بأنّ ما أُقْدِمُ عليه خارجَ إرادتي. هو حلمٌ لا أقوى على الاستفاقة منه.

صعدْتُ في التاكسي وأقفلتُ إلى البيت. نسيتُ سيارتي في موقف المول. اتّصلْتُ بعاصي وأخبرتُهُ، وكانتْ فرصةً له لمقاهرتي، فضحك كثيرًا وقال:

- عقلكِ وقلبكِ سكنا بيتي، عزيزتي.

- إرباكي يوتّرني يا عاصي. ما اعتدْتُ الغموض في حياتي.

الصباحُ جميلٌ. أجلسُ في حضرة قهوتي، أعيدُ عقارب الساعة، أحاكي طيفه المتمرّد، أستذكر وجهه الطيّب، أضحكُ وحدي لحاله المتقلّب، أصنَع من ضحكته صباحي.

صباحٌ كهذا لا يحتاج إلا إلى جلالة حضورهِ.

أتأمّلُ غرفتي التي تركْتُها منذ زواجي. ما زالتْ كما هي: كلّ شيءٍ في موضعه: مرآتي، صوري المكبّرة على الحائط، حتّى المجلّات والكتب المرصوفة على المنضدة إلى جانب الكنبة الصغيرة التي شهدَتْ على أجمل قصصي، مكتبتي المتواضعة، سريري الكبير الذي على ظهره حُفِرَتْ صورتي في عيدي الخامس عشر. تلك الصورة تعيد إليّ ذكرى عبوري إلى الصبا، حيث أقفُ بتنّورتي «المكسي» والفتحة الطويلة حتّى فخذي، أضع يدي على خصري وكتفي يتقدّم وجهي.

رسمْتُ طفولتي في هذه الغرفة، دوّنْتُ عمر المراهقة على جدارها. لا أذكر شغف الحبّ قبل عاصي... كانَتْ جميع تجاربي «ولّادية». أذكر يوم كان أخو صديقتي نورٍ يلاحقني من مكان إلى آخر،

راجيًا نظرة أو كلمة. كان يغريني، كصبيّة، أن يطاردني، وأن أشعر أنّ تمنّعي ضرورة لإرضاء غروري. وأذكر جارنا سليمان صاحبَ العينين الزرقاوين.. كان يخال نفسه «دونجوان» عصره، وعنترة الحارة. كانتْ تلاحقُهُ بناتُ الحي وأنا أمرّ من جانبه كأنّهُ جزءٌ من تركيبة الهواء، فلا أراه ولا أحسّ به. كانتْ تصرّفاتي تزيده تعلّقًا بي وغيظًا منّي. كم من عريسٍ أتتْ به خالتي وجارتنا أمّ سعيد، فاختلقْتُ الأعذار والحجج وهربتُ، وفي ضفائري تختبئُ عنهما طفلةٌ عنيدة!

عندما تعرّفتُ إلى أمين، كنتُ قدْ أتممْتُ الثامنة عشرة. أبهرَتْني طلّته وانفتاح عقله. بدفعة واحدة، قرّرتِ الحياة إعطائي فرصة الإنسان المثالي، هكذا قالتْ أمّ سعيد وهكذا أقنعَتْ أمي. لا عذر لرفض تلك الفرصة التي قد تأتي مرة. تزوّج عقلي من أمين واقتنعْتُ من أمّ سعيد أنّ الحبّ هو في القصص والأفلام الرومنسية فقط. بينما في الواقع هناك عِشرة وتعامل واحترام.

وجدْتُ كلّ هذا مع أمين. تقاطعَتْ أقدارنا؛ هو في التزوّج من لبنانية كما ترغب أمّه، وأنا في التزوّج من شابّ ثري محترَم.

كنْتُ أظنّ نفسي أحبّه، أو بالفعل كنتُ أحبّه، ولكنّ العشق شيء آخر، هكذا قال لي عاصي. أحيانًا نعتقد أنّنا نحبّ أشخاصًا لأنهم جديرون بمحبّتنا، ولكنْ سرعانَ ما نكتشف أنّ الحبّ والعشق أمران متباينان، على قُربٍ.

استيقظتُ باكرًا وأنا لا أذكرُ سوى وجهه. أمسكْتُ الخَلَوي وكتبتُ:

- صباحكَ نورٌ يناديني.
- صباحي أمل ينتظر مجيئكِ.
- متى نلتقي؟
- أنتظركِ بعد الظهر! لا تتأخّري.

دخلتُ غرفة الجلوس وكانتْ أمّي «تقمّع» اللّوبية بينما تشاهد «يوم جديد»، برنامجًا صباحيًّا يستضيف أشخاصًا من شتّى المجالات الاجتماعية والثقافية. لم تكن تعنيها مواضيع البرنامج بقدر ما تعنيها ضحكة إيلي المذيع. كان له تأثير كبير على مزاجها. سألتُ أمّي عن كريم، ولكنّها لم تُجِبْ. فجأةً، يستديرُ جاد نحوي، وبصوتٍ وحشي يزعق بي ويهدّدُني بسلاح كبير زائف. تركض ألين نحوي، وفي يدها لعبة الباربي، وتقلّد أخاها وتردّد كلّ كلمة يأتي بها كببغاء. رفعتُ يدي فوق رأسي لأشاركهما لعبتهما! يصيحُ بي جاد «Você traidora» (أنتِ خائنة). تصيبُني الدهشة. يا إلهي! لا يجوز للمصادفات أن تعبث بهواجسي إلى هذا الحدّ. يقفزان من حولي ويصيحان: «أنتِ خائنة. قلتِ إنّكِ ستأخذيننا معكِ إلى المول وذهبْتِ وحدكِ». أضمّ جاد إلى صدري، نجلس معًا، فتغار ألين، وأضمّها هي الأخرى وأعدهما بالخروج إلى السينما.

عدْتُ إلى غرفتي، وفي داخلي إحساسٌ غريب لستُ أدري ما أسمّيه. شعرتُ أنّني مرهقة فاستلقيتُ من جديد على سريري. بعثْتُ برسالة إلى أمين أطْمئنّ على حاله وأقول إنّني أشتاق إليه. سيقرؤها حينَ يصحو صباحًا، لفارقِ الوقت بينَ لبنان والبرازيل. ترى، هل سوف أكون في حضن عاصي حين يقرؤها؟!

وقفتُ أمام المرآة، نظرتُ إلى وجهي الشاحب. مشوّشًا كان كأفكاري، وباهتَ الإشراق، على غير عادة. أيّ يمّ يجهل قانون المدّ والجزر يسحبني إليه؟

دخلتْ أمّي، وجدَتْني أكلّم نفسي. أسندَتْ ذراعها إلى الباب، تبسّمتْ وقالتْ:

«ريف، بعدِكْ ب هالعادة؟!» وغرقتْ في الضحك.. «كنتِ طوال صغركِ تقفين أمام المرآة ، تكلّمينها، أو تضعينَ الموسيقى وتقلّدين سعاد حسني. بتزمّي شفافِك وبترفعي حواجْبِكْ وبتغنّي يا واد يا تقيل». أبتسمُ تكلّفًا وأضع يدي على فمي. تسألني: «هل ستخرجينَ اليوم؟ خالتكِ تودّ رؤيتكِ».

- غدًا أمّي، غدًا صباحًا أراها.

ولكنْ سرعانَ ما غصّ البيت بأقاربَ ورفاق.

تسلّلْتُ إلى غرفتي لأتّصل بعاصي وأعتذر عن لقائنا.

تعمّ بيتنا الفوضى، تطفو خيبة الأمل على أحاديث الحاضرينَ.

الكلّ يتذمّر وينوح على حال الوطن. خالُ أمي رجل مقتدر ماديًّا، يعيش حياته متنقّلًا بين أوروبا ولبنان، لم يتوقّف عن الزفير طوال الجلسة: «الاستقرار يجلب الاستثمارات والبحبوحة، وبوجود الاستثمارات تُشَغّل اليد العاملة، وبالتالي لن يُضْطَر الشباب إلى حمل السلاح مقابل حفنة صغيرة من المال». تردّ جارتنا أمّ سعيد وكأنّها المعنية بالحديث، فتقول: «بعض شبابنا لم يحملوا السلاح لأجل حفنة من المال، بل لأجل قضية آمنوا بها ودفعوا دماءهم دفاعًا عنها وعن كرامة الوطن، عن أرضكَ التي تريد أن تستثمرَ بها. بعضُ الرجال حملوا لواء الدفاع عن عرضنا بينما آخرون هتكوا أرضنا وسرقوا مالنا ونهبوا حقّنا بالعيش الكريم». ثمّ تستديرُ نحو أمّ جوزيف، تضع يدها على كتفها، تتنهّد، وبغصّةٍ تقول: «نحنُ ذقنا مرارة الشهادة وجرعْنا دمعها، ونعي معنى أن يرحل ضنى الروح كي يبقى الوطن».

يردّ خال أمي مغتاظًا: «ليس كلامي سوى استياءٍ شديدٍ من النهج الذي مُورس في تضليل الشعب وجَعْلِهِ أسير العصبية الطائفية. الكرامة الا يُصابَ الإنسان بالعوز، الا يموت على أبواب المُستشفيات، ألا تُهانَ ابنتكِ على أبواب محاكمنا الروحية والشرعية. الكرامة والعرض لا تصونهما الأحزاب الطائفية، إنّما الدولة المدنية. هناكَ قوانين دولية، أمم متّحدة، شرعة حقوق الإنسان، هناك حوارٌ ودعاوى دولية. لغات الحلّ جمّة، فلمَ لا تختارون سوى لغة السلاح؟».

تبدو أمّ سعيد متوتّرة بعض الشيء. أخذتْ نفسًا عميقًا ثمّ

ضحكَتْ هازئةً وتلفّتَتْ صوبَ أمّي وقالت: «اسمعي خالِكْ، قالْ أمم متّحدة قالْ! بالله عليك يا أبا وسيم، أحقًّا تؤمن بوجود عدالة دولية وأمم متّحدة محايدة تقوم بنشر السلام؟ أحقًّا تعتقد أنّ أمًّا مثلي تزغرد يوم استشهاد ابنها، أمّ سعيدة وراضية؟» تسترسل أمّ سعيد بدفاعها وكأنّها في محكمة، وتُردِف رافعةً سُبابَتَها اليسرى تشير بها إلى أعلى: «وحدَه هو مَن يعلم بالنار التي تستعر في قلب أمّ الشهيد. لقد أثبتَ التاريخ أن كلّ ما يؤخذ بالقوة لا يُستردّ إلا بالقوّة. فيكْ تْقِلّي شو عِمْلِتْ عدالتَكْ الدولية لفلسطين؟».

حوارٌ عقيمٌ هوَ الآخر، كحوار عقلي وقلبي. ينبضُ القلبُ على إيقاع عشقي، وتقتسم ضلوعي النبضات الحرّى، وتحملني إلى عالم الخَدَر.

يردّ عقلي: «أحسنتِ أحسنتِ. كم أنتِ بارعة يا ريف في إغراق نفسكِ!».



كان شيءٌ ما ينفجر داخلي باستمرار. كلّ شيءٍ يوصلني إلى عاصي. عيناه بوصلتي وخارطتي، وأخشى أن أقول موطني. لا عجبَ في أنْ أجدني، في اليوم التالي، مستقلّة سيارة أجرة، تزرعني عند باب بيته. السيرُ، كعادته، مزدحمٌ، وأنا إلى جانب السائق أرى بطرف عيني أمارات التعب والامتعاض على وجهه، إذ يعلو صدره ويهبط مع كلّ شهقة وزفرة. «نحن بأمسّ الحاجة إلى جيل يعي مخاطر المرحلة». أستأذنه بتغيير قناة الراديو. «في ظلّ تفاقم الأزمات وعلى وَقْع طبول الحروب، علينا أن نعيَ أنّ التضامن يصون أكثر من السلاح».

- اعذرني، ولكنّي سأغيّر القناة مرّة ثانية. هلْ يزعجكَ الأمر؟

يجيبُ ضاحكًا: «ما حَتلاقي غير سياسة. وإذا حظِّك حلو دعاية أو غنّيّة لَشِي طَرطوق».

دخلْتُ بيتهُ مبتهجة، وكأنّ الغيوم تلاشَتْ كي تفسح في المجال أمام ملكة الكون، أو كأنّني فراشة تستعرض ألوان أجنحتها النديّة. نظر

إليّ نظرةً ذات افتراس رقيق، ومن غير أن ينطقَ ببنت شفة، جذبني وضيّق عن صدري مساحة التحفّظ.

أحيانًا حماقة الكلمات تفسد اللّحظات، فتغدو الأنفاسُ وحدَها لغة تطرقُ باب الرغبة. لغة النفَس يفهمها العاشق، كما يفهم الأمّي لغة العشق. غرس رأسي في صدره، ولا بدّل الله مكانًا أروم فيه بقائي.

لفّتْني يدُهُ اليمنى من حول عنقي وهبطَتْ قليلًا يدهُ اليسرى حتّى خصري. تسلّل عطرُهُ من أنفاسي، ليأسرني ويحرّرني، ليحييَني بلْ ليقتلني. أزاحَ شعري المنسدل من على كتفي ووضعَهُ كلّه في ناحية واحدة، كأنّه يفسح المجال إلى جِيدٍ ظمأى للجّة شفتيهِ. دقّات قلبه تناجي سيّدة القدر Carmina Burana. أحسَسْتُ بلمسة يدِهِ أسفل أذني وفوق عنقي، أنامله تخطر بلطفٍ على شفتيّ. وجهُهُ أصبح ملتصقًا بوجهي، وبشهوة الطغاة قبّلني. نويْتُ أن أقومَ، أفكاري عادَتْ تعَصْفُ بي: إنْ لم يرَني أحد، فالله يراني ولن يغفرَ لي!

لم تعدِ المسألة مسألة إرادة، فقدْتُ كلّ اتصال لي بالخارج، شعرتُ بدَوران، أغمضْتُ عينيّ، وكأنني لا أريد أن أشهد على ذوَباني. مال بعنقه نحو أذني وهمس مُقِرًّا أنّه يريدني، يحبّني، يحتاجني. فتح كفّ يدي يقبّل كلّ زاوية، والتقط خصلًا من شعري الأسود يمرّرها بين شفتيهِ. نسيت ذاتي وسرت إلى جانبه، دخلنا غرفة الجلوس، أدارني واحتضنني من الخلف. تحسّستُ جسدَهُ... كنّا قد التحمْنا تمامًا. شعرْتُ أنّني تائهة في أنحاء جسمه وغارقة أيّما غرقٍ... شدّني

إليه أكثر، سرَتْ في جسدي رعشةٌ، ذاكَ النفَس المثير بدأ يجري في عروقي، إحساسٌ بالخَدَرِ احتلّ كِياني. جثونا على ركبتَيْنا في أرضِ الغرفة، وكأنّنا لوحةٌ ترسم خوفَ متعبّدٍ من فقدان رحمة إلهِهِ. وشوشاتُهُ كانتْ تملأ مسمعي، فجعلَتْني أمشي قاطعةً كلّ معابر القلق والتفكير. عندما اعتلى جسدي، رأيتُ في عينيهِ مزيجًا من الشهوة والحبّ. كانتْ نظرته مفعمة بالشغف. لم يتوقّف عن الكلام وهو يقبّلني، كأنّه أراد أن يعبّر عن عمرٍ من الضياع، وجده الآن في هذه اللّحظة الجنونية. لم أعدْ أتساءل عمّا يمكن أن يحدث. شعرتُ بدفء شفتيه، غمغمتُ، لأنّني ما عدتُ أقوى على الكلام. أردْتُ أن أقول: «ساعِدْني لأهرب من تلك اللّحظات»، ولكنّني مددْتُ يدي إلى وجهه، وقلت: «نحن فريسة لعبة الشيطان».

وفي اللّحظة التي حاول أن يبرّر أو يقول شيئًا، وضعتُ يدي على فمه وقلتُ: «فليبعثْ بي إلى الجحيم، أنا مستسلمة لهذا السحر».

رفع قميصي، تسلّلَتْ أنامله بين نهديّ وسُرّتي، وألقتْني وسطَ فضاءٍ من الأخيلة. ما عدْتُ أدري كيف عرّاني، وراحَ يتفقّدني شبرًا شبرًا.

اعتراني دوار، غمرَني دفءٌ غريبٌ، مدّني على الأرض، فسلّمْتُ له نفسي.

كان من المستحيل أن أتجنّب هذا الجنون. تملّكتْني نشوة من

الخوف والرغبة، من الحاجة والوجع، من العذاب والسعادة، وسرَتْ في أوصالي كتيّار كهربائي دفعَتْني رغمًا عنّي إلى البكاء، ثمّ الصراخ، كمنْ أصابَها الجنون.

فلتذهبْ كلّ المحرّماتِ إلى الجحيم... بينَ يديْ سيدي، هيَ الجنّة، لا بديل.

لو وُجِد الله حقًّا، فلن تصدمه أفعالي؛ هوَ مَن خلق بِنَا هذا الإحساس العارم باللّذة والحبّ، وهو على أتمّ المعرفة بكلّ شيء.

هنا مارسْنا الحبّ، هنا اندمجتْ روحانا وجسدانا، وانتفضَتْ. هنا كانتْ نشوةٌ بدون حدود.

علّمني حبّكَ الكذب والخداع، سيّدي.

علّمني حبكَ أنّ الممنوع مرغوبٌ وأنّ الزنا حلال.

علّمني حبّكَ أنّ النهار سترة المرأة المتزوّجة، وأنّ هروبي إليكَ ضرورةٌ، لا خيار.

علّمَني حبُّكَ المُراهقة، ولكنْ بإحساس امـرأةٍ، وعلّمني أنّ السعادة غايةٌ، وليسَ للوسيلةِ أيّ اعتبار.

يا رجلًا أختصر معه عمرًا وأعيش وإيّاه اللّحظات، ظننْتُكَ وهمًا من كلماتٍ إلى أن عبرْتَني وحملْتَني إلى دنيا فيها البرق وفيها الرعدُ، فيها الإثمُ يحلو ويُرجى.

بقينا على السجادة لساعاتٍ، أخذَني في حضنه بحنوّ وكأنّه

يواسيني من خطيئتي. لملمتُ بعضي على بعضٍ، احتضنني عن العمر كلّه. للخبّ، هنا، طقوس قوس قزحية. أحسّ بدموعي تسيل على صدره العاري، فشدّني إليه أكثر.

رأسه على رأسي، شفتاه تهمسان في أذني:

- سامحيني. وعدتُكِ أنْ أحميَكِ من نفسي ومنكِ، وخذلتُكِ! وعدتُكِ أن أقيّد رغباتي بسلاسلَ من حديدٍ، وخذلتكِ!

لم أخرجْ ذاكَ اليومَ خالية اليدين: حملتُ معي خيانتي، تتقاذفني أمواجُ العار يمينًا ويسارًا، تُنَغِّص عليّ نشوتي. جلسْتُ وحيدةً في غمرة حزني أناشد بحر بيروت السكينةَ والسلامَ. أصبَحْتُ والبحرَ شبيهَيْنِ، تعصفُ بِنَا العواصفُ والرعودُ والبروقُ، أصبَحْنا نسكنُ ظلمة الأرض، وندخل في الدهاليز المُظلمة. آلامي جرعة شديدة المرارة ولكنّ حبّهُ قيثارة في نفسي، لها لحن عذبٌ، هوَ الترياق.

أتساءل كيف له أن يجرّدني من كلّ شيء...

تقلّبْتُ مرارةً على فراش الألم، أبكي والنشيج يخنقني، اعتصرْتُ روحي من الذّنب سكّينًا طعنْتُ بها بؤسي. كان عليّ أنْ أهزمَ عشقَهُ، لا أنْ يرديَني قتيلة الأوهام. لم أكتشفْ ما حلّ بي إلا بعد فوات الأوان، كأنّني حقيبة فارغة مرمية على الأرض، منها تناثرَتْ أوراقُ حكايتي.

كنتُ أحاولُ لملمتَها بأقلّ الخسائر الممكنة، ولكنّ مطر العشق محا كلّ السطور ولم أرَ سوى آثارٍ لخدوشٍ ممرّغة بتِيهِ الكلمات، بعثرَتْها الرياح والعواصف والحياة، وبعثرَتْ معها ظلّ امرأة كتبتْ نهايتها بحبر الخيانة.

كانتِ الرابعة فجرًا، وأنا ما زلتُ أتقلّبُ على جمر الخيانة، أسبح في مستنقع من الدموع. أنا أمام عالمٍ لم يكن لي ولا أنتمي إليه. كدْتُ أصرخ بأعلى صوتي: يا ألله.

هو ذاتُه مَن غاب عنّي لحظة انغماسي، وتساءلْتُ إن كان موجودًا، الآن أتوسّل رحمته!

أعِدْني إلى قلبكَ. لمَ تخلّيْتَ عنّي في الوقت الذي أحتاجُكَ فيه بمرارة؟

لماذا نلجأ إلى الله فقط حين نشعر باليأس؟ لماذا نطلب المساعدة من الله في لحظات الضعف فقط، وننساه في لحظات أخرى؟

ما عرفتُ الندم في حياتي... أراني اليومَ أموت ندمًا.

يقتلني حبُّهُ... وأحبُّه!

أموتُ ندمًا أنّني سلكتُ طريق المعصية.... وأعشق خطيئتي.

تعذّبني أفكاري، وأكثرُها يقيني أنّني لستُ له، أنّني قد أكون، ونساءً كثيراتٍ، نتقاسمُ أجزاء حياته. أنّني قد أكون لعبةً اشتهاها ذاك الطفل المتخفّي بجلالة الكاتِب.

كتمْتُ أنفاسي واكتفيْتُ بسماع صرخات روحي إلى أنِ استسلمتُ للنّوم، بعد ليلٍ حالكٍ أليمٍ وبعد عناء اليقظة والصبر المرير.

لم أشعرْ في حياتي كلّها بمثل هذا الضياع الممزوج بالسعادة والألم معًا، كأنّما الذّاتُ تتسابق مع الذات. من حبّهِ شمسٌ تشرقُ ومنْ خيانتي ألمٌ يعصفُ في روحي.

صراعٌ كبيرٌ في نفسي أربكَ عقلي وأخلّ بتوازني. بقيْتُ ثلاثة أيامٍ حبيسةَ غرفتي، لا أخرج منها ولا أسمح لأحدٍ بالدخول إليها، بِمَنْ فيهم ابنتي ألين. أقاومُ ضعفي وقوّة الفتنة التي أوقعْتُ نفسي بها. كان لوجودِهِ في حياتي سلطةُ احتكار. رجلٌ يملك حضورًا آسرًا، وكريزما باهرة، أعطتْهُ إيّاها تجاربُهُ الكثيرة في الحياة. أمّا أنا فما أعطَتْني سوى ورقة بيضاء، دوّنْتُ عليها خيبة عمرٍ ضاعَ عند أوّل تجربة حياة.

يكفي السارقَ أنْ يسرقَ مرّة واحدة حتّى يعيدَ الكرّة، ويكفي الخائنَ أنْ يقعَ فريسة الحبّ ليتابعَ طريقَ المعصية. بعد محاولاتٍ مستميتةٍ عاقبتُ نفسي بها، انتصر حبُّهُ، فذهبْتُ مرّةً أخرى للقائه. مددْتُ إليهِ ذراعي فأحاطَني بحنانٍ، بكيتُ في حضنه، ثمّ أجهشْتُ، وضمّني كأنّه يلملمُني بعدما بلّلتُ بدمعي قميصَهُ الأبيض.

وفي هدوءِ اللّيل، تسلّلتُ مضجعَهُ، مسحَ دموعي وهو يبسطُ جسدي أمامَهُ ويملؤهُ تقبيلًا. نظر إلى عينيّ وهمس: «وجودُكِ يمنحُني القدرة على الفيضِ والحبّ». أغمضْتُ عينيّ وواصلتُ الاستماعَ

إليه... «لا تبحثي عن سبب الفعل ولا تتعمّقي كثيرًا في التفكير. دعي الأيام تفصحُ عن سرّ لقائنا. ضعيني في قلبك، وعندما تحتاجينني ستجدينني في أنفاسكِ. أحبّكِ كما يحبّ الرضيعُ صدرَ أمِّهِ. تملكينَ سحرًا مدمّرًا، تتناثرُ أنوثتُكِ كرغبةٍ جانحةٍ في كلّ حنايا روحي».

أمسكَ يدي وسارَ بي إلى حيثُ لا أدري. عانقتُ معَهَ اللياليَ ولامسْتُ دنيا واسعة من الأحلام. أمسكتُ النجومَ حليًّا والقمر تاجًا، صدّقتُ أساطيرَ العشق والهيام، ونسيتُ أنّ لحياتي ضفّة أخرى غمرَتها مياه النسيان.

يا حبًّا استفزّ الرياح، لماذا شرّعْتَ الأبواب؟

يا صلاةً كلّها إيمانٌ، لماذا توضّأتِ بالعار؟

باذخُ الإيلامِ حزني، فكيفَ أوليهِ ظهري؟

ليتَ كلّ هذا، رغمَ حلاوته، حلمٌ أصحو منه غدًا وأهجرُهُ!

بدَتْ غرفتي ضيقة، تطلّ من ثناياها كلّ هواجسي وأفكاري. لا سبيلَ للصّراخ. لفّني اليأس وتمنّيتُ لو أموت!

كانَتْ قدْ مرّتْ بضعة أيام من دون أن نلتقي أو نتحادث. اختفى كعادته. وأنا، كعادتي منذ اللّحظة الأولى، أخذ عقلي يحلّل سلسلة المؤامرات التي يحوكُها عاصي لإيقاعي.

لم يحبَّني! كان مجرّد وهم... استغلّ ضعفي ورحل....

كنتِ فريسةَ عنجهيات الرجولة يا ريف، والآنَ ستصبحينَ ضحية الأحاديث الخبيثة.

يا إلهي! ماذا لو كان حقًّا هكذا عاصي؟ لا لا. هو مَن قال إنّني سأتعرّف معه إلى نوع آخر من البشر! ولكن أيّ نوع؟ هو مَن قال إنّ الغد سيكون أجمل! ولكنْ غد مَن؟ أفكار كثيرة عبرَتْني، أرهقَتْني وجعلتني ريشة تتقاذفها الريحُ ولا تدري أينَ تحطّ. تمالكْتُ نفسي واحتفظتُ ببعض الهدوء الذي لم يكن لي بُدٌّ منه، حتّى لا يشعر أحدٌ بحالي. دخلْتُ غرفتي، جلستُ، وأسندْتُ ظهري إلى حافّة السرير. حتمًا سأموتُ إن بقيْتُ على هذه الحال! بحثْتُ عن حبوبي المهدّئة، بلعتُ الحبّة الملعونة واستلقيْتُ أنتظر نعاسي.

كانتِ الساعة الحادية عشرة صباحًا عندما رنّ هاتفي:

- اشتقتُ إليكِ.

كيف أردّ وماذا أقول؟ أنا التي قتلني شوقي إليه، وفي الوقت نفسه أمعنَ بُعْدُهُ المفاجئ بإهانتي.

- ظننْتُكَ في مهمّة استخبارية. أنتم الصحافيّين هكذا، يلفّكم الغموض من كلّ جانب.

- اعتقدْتُكِ مشتاقةً إليّ!

-

- ربّما غيظي أكبر!

-

- أو ربّما كثرة أفكارِكِ تُنسيكِ واقعي. اضطررْتُ إلى السفر! هلْ نخرج معًا غدًا؟ سأصطحبُكِ إلى مدينتي.

- سنذهب إلى زحلة؟

- لا. إلى جبيل.

- جبيل مدينتك؟!

- جبيل مدينة العظماء.

- قليلًا من التواضع، سيدي.

- أقصد أنّها مدينة تليق بعظمة أنوثتِكِ وعينيكِ.

كان ثري العبارات، يتقن لعبة الغموض كما يتقن فنّ الإقناع. لكنّ وراء غموضه شيئًا ما يخفيه. رحيله المفاجئ، قوّة تحاليله... لا بدّ أنّ له مصادره الخاصّة. كان يمتلك حنكةً تميّزُهُ من بقيّة المُحلّلين والصحفيين. في زيارتي الأخيرة إلى بيته، لفتتْني كمية الهواتف النقّالة التي يملكها. سألتُه إن كان يعمل لوكالة استخباراتٍ ما، أجابني باستهزاءٍ إنّ كلّ صحفي متّهمٌ بأنّه يعمل لوكالة معينة. ترك لي حرّية التخمين: لم يعترفْ ولم ينكرْ. اعتاد إعطاء الأجوبة التي تحمل عدّة

وجوه، وحين ينجرّ إلى لعبة إثباتِ ما قال، يستطيع الاستناد إلى أيّ وجهٍ يتناسب والواقعَ المطروحَ. إنّها لعبةُ الكبار.

تهيّأتُ للقائنا. خرجْتُ من البيت باكرًا؛ لا بدّ أن تكون الطرقات مزدحمة. توجّهْتُ مباشرةً إلى .coffee shop جلسْتُ عازمة على تحديد علاقتي به، على التخطيط لمرحلة آتية، مهما كانتِ المطبّات. الحياة أيامها قليلة... لمَ لا أعيشُها بسعادة؟ نسمع الكثير عن قصص الزواج التي فشلتْ، لمَ لا أكونُ واحدة منها؟ هل يجبُ أن يكون السبب دائمًا مقنعًا، ما دامتِ الحياة نفسها غيرَ مقنعة، تتلوّن بظلال الكذب والغشّ؟ فلْأكُنْ، كما كنتُ دائمًا، صادقة ولأعترفْ لأمين بحبّي لعاصي. لماذا لا يكونُ لي طفلٌ من عاصي يربطني به العمرَ؟ لمَ لا...؟! أنا حتمًا مجنونة. أبدو غير طبيعية بهذا التفكير! لا بدّ من استشارة أخصّائية نفسية.

أراهُ يدخلُ البابَ يلوّحُ بيدِهِ. يوشكُ قلبي أنْ يخرج من أضلعي. وضعْتُ يأسي جانبًا، وفاضَتْ عيناي لمعانًا، كأنّ شيئًا لم يكن. ما كنْتُ أريد إفساد جميل اللّحظات. يكفي وجوده ليهدأ عقلي أو يغيب. يبادلني السلام ويقبّلني بطريقة رسمية. يقترح تغيير الطاولة، نجلس في الزاوية المقابلة، إلى جانبنا لوحٌ خشبي مثبتٌ على قائمتين، عليه جرّاتٌ من الأزهار الملوّنة. يلتقطُ لي صورة بهاتفه ثمّ نشرب القهوة مع قشوة الغزل. يضع الكثير من السكّر في عباراته، تربكني نظراته ولكنّها تُوَلّد فيّ شعورًا من السعادة العارمة. يرنّ هاتفه أكثر من مرّة، يضعه في حالة صمتٍ، ويقول: «اسمحي لي أنْ أدعوَكِ على الغداء في جبيل».

نتحادثُ في السيارة لساعتينِ. يشرح لي عن سرّ لقائنا. أحكي له عن مخاوفي ويصغي دون أن يقاطعني. أواصل الكلام لاعنةً القدر، فيما يصرّ على أنّ روحَيْنا هما مَن سيقرّران. أشعر أنّني على شفير البكاء ولكنّي أتوقّف عن التذمّر. لا أريد أن أبدو يائسة. أعرف أن ثمّة نهاية ما لعلاقتنا، ولكنّي سأعيش لحظاتي معه بأبدية.

مشينا في السوق العتيقة. جبيل أقدم مدينة في العالم بعد أريحا في فلسطين. لكلّ حجر قصة تاريخ وحضارة. دخلْنا الميناء الفينيقي، جلسنا وأمواجُ البحر شهدَتْ على صمتنا. كانَتْ أحضانُهُ تكفيني. كنْتُ أحاول استدراجه للغوص أكثر في ذاته ولكنّهُ كان يراوغني كعادته، فيقول ما يشاء وينسحب متى يشاء.

لوجبة الغداء نكهة معطّرة بتاريخ تلك المدينة وجمال لوحتنا العشقية. حدّثني عن طفولته المخدوشة بخدوش الحرب والسلاح، عن رفاق وليالٍ أنيسة رغمَ كلّ الويلات. بدا تأثره واضحًا حينَ روى لي قصّة استشهاد صديقه أمامه، بالقصف الإسرائيلي. ما زالت تلك القصّة الفجيعة تحكي مرارة الاحتلال. تحدّثنا عن معاناة المهاجرين، والأحلام الوردية في جمع الثروة، والعودة إلى البلد. ضحكَ وأجاب: «كي يجدَ بانتظارِهِ إقطاعيين يقاسمونه جنى عمره مقابل تسهيل أمره، والقبول بأن ينهضَ بمشروعٍ ما في بلدته أو مدينته، فيعود أدراجه مكلّلًا بالخيبة؟».

الهجرة قصّة إنسانٍ وأرض، استقرارٌ وانتشار. يذكر أمين معلوف: «ولدْتُ في بلدٍ، في مدينة، في طائفة، في أسرة، في حضانة، في فراشٍ، ولكنّ المهمّ عندي، وعند جميع البشر على السواء، أنّني جئتُ إلى هذا العالم». قلّما تجد عائلة في لبنان تخلو من فردٍ مهاجرٍ أقلّه. إنّ الهجرة اللّبنانية أعطتْ أكثر ممّا أخذَتْ. في البرازيل فقط أكثرُ من سبعة ملايين متحدّرٍ من أصل لبناني.

يفاجئُني بسعةِ معلوماتِهِ عنِ البرازيلِ وعن باولو معلوف بالذّات حاكم ولاية ساوباولو والمرشح لرئاسة الجمهورية. يخبرُني كيف هاجرَ والده سليم من زحلة في عشرينيات القرن الماضي، ويحدّثني عن ميشال تامر، نائب رئيسة الجمهورية حاليًّا، ورئيس مجلس النواب البرازيلي لثلاث دورات متتالية.

برز الكثير من الفنّانين والصحفيين في البرازيل. وأسّس المهاجرون الجرائد والمجلّات مثل أوّل صحيفة عربية في البرازيل سنة ١٨٩٥ لصاحبها سليم بالش. وقد وصل عدد الصحف في البرازيل إلى مئةٍ وأربعينَ صحيفة. يُحكى أنّ المهاجرينَ الذينَ كانوا يتجوّلونَ وينقلونَ بضائعَهمْ، كانوا يحملونَ الصحفَ اليومية لبيعِها للجالية العربية.

تأثّري بما قال كان شديدًا. تذكّرتُ حينها حكمةً تقولُ:

تــغــرّبْ عــن الأوطـــان فــي طلب العلى

وســافــرْ، ففي الأســفــارِ خــمــسُ فــوائــدِ

تـفـرّجُ هــمّ، واكـتـســابُ مـعـيـشـة
وعـلـمٌ وآدابٌ وصـحـبـة مــاجـدِ
وإنْ قـيـلَ في الأسـفار ذلّ ومـحـنـة
وقطع الفيافـي واكـتسابُ الشدائـدِ
فـمـوت الـفـتـى خـيـرٌ لـه في حياته
بدار هـوانٍ بين فـاشٍ وحــاســـدِ

حينَ عُدْنا، كانتِ الشمس قد أسدَلَتْ خيوطها مودّعة، كأنّها تقول: «سأتركُكما تلتحفان ظلالَ اللّيل». كانتِ الساعات تمرّ بيننا كبرق تشرين. كان رجُلًا من كلماتٍ، يكتبُ حروفها على جسدي ويجعل من كلّ شبرٍ مقالًا. كلّ لمسةِ حبٍّ كانتْ معبرًا للرّوح إلى حيثُ يهيمُ الزمان.

كم للحبّ من قدراتٍ خفية! يتحوّل ويتأقلم مع كلّ اللّوحات. لا لونَ للحبّ ولا دين، لا طائفة ولا مذهب. يلبس ثوب اللّامعقول ويحوّله إلى معقول، كأنْ يحبَّ رجلٌ امرأة تكبرُهُ بسنواتٍ، أو كأنْ تعشق امرأة مُقعدًا على كرسي الحياة، أو كأنْ تعشق متزوّجةٌ رجلًا صُنِع من كلمات.

كانتْ أمّي جالسة تتابع البرامج الصباحية والأخبار حينَ دخلتُ عليها. رفعَتْ رأسَها وبلهجة الرقيب، قالتْ:

- لا تُعجبني حالُكِ يا ريف!
- صباح النور يا أمي!
- الصباح نورٌ حين يشعّ الإنسان ضوءًا.
- تُراني أشعّ ظلامًا، سيدتي؟
- أراكِ تشعّين ضياعًا، كأنّكِ في بحثٍ دائمٍ عنٍ شيء.

لم تكن أمّي امرأة محدودة الذّكاء؛ تعيش سذاجة الواقع ولكنّها تعرف كلّ الأشياء التي تدور في خفايا المصادفات. تعرف منطق الحياة وتجيد ألاعيبَها. خَبِرَتْ أناسًا كثرًا، وخاضتْ غمارَ العمر، فاستحقّتْ شهادة حياة.

جلسْتُ مشوّشة الذّهن، تساءلْتُ في نفسي عن مصير علاقتي بعاصي. تخيّلْتُ وجهَ أمي إن عرفَتْ أو أحسّتْ بأيّ شيء. بقيْتُ لبضع دقائق صامتة أستعرضُ في مخيّلتي كلّ السيناريوهات المُحتمَلة. وقبل

أنْ أستعيدَ السيطرة على أفكاري، قلتُ في نفسي: «كلّ شيء في الكون يبدو صغيرًا وتافهًا عندما أكون بين أحضان عاصي». وضعتُ المخدّة جانبًا، وقلتُ بحدّة:

سأذهبُ إلى بيت صديقتي في زحلة، وأظنّني سأبيتُ ليلتي هناك، كي لا أعود ليلًا.

لم أكَدْ أبدّل ثيابي حتّى رِنّ هاتفي.

- معكَ سأمضي آخر الأسبوع!

- في حضني ليلة من العمر! أحبّكِ.

التقينا في أحد المنتَجَعات السياحية في الجبل. كان قد طلب منّي أن أذهب صباحًا، وهوَ يوافيني بعد أن ينتهي من عمله. دخلْتُ منتجعًا بين جبالٍ تلبس وشاحًا من أشجار الصنوبر أخضرَ. ساحاتُهُ ملأى بأكواخ صغيرة، منفردةٍ كلّ على حِدة، تفصل بينها ممراتٌ صغيرة فُرِشَتْ بأحجارٍ نبتَ العشب بينها. وعلى حافّات الممرّات والكهوف الصغيرة أرصفة من أزهار الخزامى. الشمس تتسلّل لاهيةً من بين أشجار الصنوبر الممتدّة أمامنا، إلى كوخي رقم ٥. مدخله ثريُّ الأشجارِ، شرفتُهُ صغيرةٌ مقلّدة بالورود، وعليها كرسيان وطاولة فيها عبَقُ التراث. رائحة الأرض آسرة، أنيقة، ونُسيماتُ الصيف منعشةٌ. حفيفُ الأشجار راح يلامسني، فمددْتُ ذراعي أوشكُ أن أطير. اصطحبَني الشابّ وفتح ليَ الباب، وإذا بالورود، صغيرها وكبيرها، منثورةٌ في كلّ مكان. ينظرُ إليّ الشابّ ويقول:

- مبروك، سيّدتي.

ما عساني أفعل سوى الابتسام ببراءة عذراءَ؟ فابتسمتُ وشكرته. اعتقدَ أنّني عروسٌ في شهر العسل. لم يحسبْ أنّي عشيقة في شهر الخطيئة!

لم أشأْ، يومذاكَ، من عقلي الحضور! وضعْتُ يدي على رأسي كأنّني أكفُّ لسانَ عقلي عن الكلام، لعلّه يدعني وقلبي بصحبة جنوني!

دخلْتُ غرفة فسيحة، جال بصري على حوائطها المرصوصة بالحجر. في الوسط طاولة خشبية كبيرة. المقاعد مصنوعة من الجلد الطري. على جانب الكنبة «بار» صغير عليه قدَحان وزجاجة نبيذ. كلّ شيءٍ يوحي بدفء المكان. على يسار الغرفة ممرّ صغير، وفي آخره بابٌ خشبي مُغلَق. اتّجهتُ نحو الباب، لا بدّ أنّها غرفة النوم. فتحْته ببطءٍ وكانتِ الدهشة!

كأنّي في حلم! الورودُ والشموعُ في كلّ مكان، شراشفُ عانقَ حريرُها ضوءَ الجوري. وعلى درجتين قصيرتين يطفو حوضٌ كبيرٌ يتسامى منهُ دخان الماء الساخن. وفي وسط الغرفة مخدّتان غافيتان على كتف قنديلٍ تضيء في قلبه شمعة حمراء.

السكون في داخلي تامٌّ، كما من حولي. اتّكأتُ على ظهري ورحتُ أتأمّل دفءَ المكان. لستُ هنا لأنتظر عاصي فقط؛ أنا هنا لأفهم سرّي العميق، لأتجوّل داخلي لعلّي أصل إلى معرفة ذاتي. عندما تكتسي السحب بالماء، لا بدّ أنْ تمطرَ. وعندما تُنثَر البذور

في الأرض، لا بدّ أن تزهر، وعندما يفيض عشقُهُ، يتبدّد الزمان والمكان، ليهربا إلى عمق الروح، فيصبحُ الجسد هو الطريق إلى مكامن الذّات.

وضعْتُ حقيبتي على الكرسي أمامي. خلعْتُ سترتي، فقميصي، فبنطالي، ومثلْتُ عاريةً أمام المرآة، ثمّ استلقيْتُ على السرير. أرسلتُ شعري، تقلّبت كثيرًا وانتظرْتُ قدومَهُ. دخلَ الكوخ، ووقف عند مدخل الغرفة، نظر إلى الثياب المبعثرة على الأرض، وقال:

- لا أريد أنْ أتخيّلَ ما ينتظرُني.

أصرخ ليعلو صوتي فوق صوت الموسيقى، وأقول:

- امرأة عارية مجنونة!

أغلق الباب وأسندَ ظهره إليه، ضحك ضحكة عالية وأجابني:

- مجنونتي مشاغبة، ما عادَتْ مقموعة!

في لحظةٍ من اللّحظات، شعرْتُ بأنّي حرّة إلى درجة السكر، بل إلى درجة الهذَيان.

مددْتُ ذراعي صوبه، ضمّني إلى صدْرِهِ، وامتصّتْ مساماتُ بدَني دفءَ يديه الغاليتينِ. استنشقْتُهُ طويلًا، وتمتمْتُ في أذنه: «ستعانقُ الروحَ معي».

بدا لي كأنَّهُ لمْ يفهمْ مقصدي!

رأيتُ بريقًا من الشهوة في حدقتيهِ الواسعتينِ. قلْتُ: «يقالُ إنّ الجسد واسطةٌ إلى الروح، متى أجيدَتْ معاملته. وما المسالكُ إلى تلكَ

بذاتِ صعوبةٍ. أريدُ الارتقاءَ معكَ إلى ما وراء حسّ الإشباع واللّذة... إلى نشوة الروح».

يستطيعُ الإنسان رفعَ طاقته حدّ الاتصال بالطاقة الكونية والشعور بسَرَيانها في جسدِهِ. كلّ شيءٍ في الكونِ طاقةٌ مختلفةُ الأمواج، تسيرُ حسب التردّدات التي تحيط بنا. كان عليّ إسقاطُ جميع أفكاري، وفتحُ مساماتي لنور الحقيقة، حقيقة عشقي لعينيهِ.

كنتُ بحاجةٍ إلى ترميم الأنا، فالإنسان ليس روحًا أو جسدًا؛ إنّه الاثنان معًا.

وضعْتُ يدي على رأسِهِ، مسّدْتُ شعرَهُ بأنملاتي، وبصوتٍ خافتٍ قلتُ: «أريد الانفصالَ الكامل عن كلّ ما يحيط بنا. اِستمِعْ إلى الموسيقى، ودعني أتمايلْ بتؤَدة على أوتار جسدِكَ. لامِسْني قليلًا ولا تلتحمْ كلّيًّا. ارسمْني لوحةً على جدار عمرِكَ، تروي نشوة روحٍ تقمّصَتْ بجسدٍ لتعبرَ معكَ إيقاعَ الكون».

انحنى فوقي وخطّ على النهدين لمساتٍ أسيلة. أيُّ طِيْبٍ يعبق في روحي حين يدنو من شفتيّ؟ أيّ لهفةٍ تجرفني إليه؟

كلّ كائن له إيقاعٌ خاصّ في سمفونية الكون. كان عاصي نبعًا لإحساسي، لا يضنّ ولا ينضُبُ. حبّه ماءٌ قَراحٌ، يسري فيّ بخطّ مستقيم، كما يفتح الفجرُ جفنيهِ على الدنى، ويلقي شذراتٍ من الضياء تأتلِفُ، ليكتملَ البعثُ ويولدَ الشروق.

ملْتُ بنظري إليه وطلبْتُ منه ألا يغمض عينيه، أن يكونَ شاهدًا



على لحظات انغماسي ولذّتي. كان ذلك مثيرًا جدًّا. بإمكاني أن أبقى هكذا عمرًا وأنا أتأمّله يعبث بكلّ محتوياتي.

أخذْتُ مبادرةَ الكلامِ هذه المرّة، رحْتُ أتكلّم بغير توقّف: «أعتِقْ أناملكَ فوق انحناءات جسدي، وتوغّل بعمقي كيفما شئتَ وأينما شئتَ. وتدرّجْ سيّدي، تدرّجْ صعودًا وهبوطًا، ولا تحرّرْني من قيود نشوتي».

كلّما داعبني بلمساتهِ تملّكتْني الرغبة بأن يلجني، ولكنْ، لدينا الوقتُ كلُّه. فجأةً، غمرَتْني رعشةٌ قوية. شعرتُ برغبة في إبعاده، لأنّ اللّذة كانتْ أقوى من قدرتي على التحمل. غرزْتُ أظفاري في كتفيهِ، تأوّهْتُ عاليًا، فولجَني كما تلجُ اللّيلَ بارقةُ النور. أطبق فمي بيده ووضعتُ رأسي في عمق عنقِهِ لئلّا يسمعَني أحد. اقشعرّ بَدَني وموجاتٌ منَ اللّذة تكسّرتْ حتّى أعماقي، عجزْتُ حينها عن احتواء صراخي.

اكتشفْتُ مع عاصي شيئًا جديدًا، طقوسًا جديدةً لممارسة الحبّ. تعلّمتُ كيف أعاند الرغبة وكيف أستعذبُ لسعاتِها. عرفْتُ كيف يبلغ الجسد النشوة مع الروح. كيفَ أنّ الحرّية سعادةٌ وأنّ السعادة حياةٌ. لا داعيَ لأنْ أقودَهُ إلى مسالكي الجنونية، لا داعيَ لأن أقول أبطِئ أو أسرِعْ. كأنّهُ خَبِرَ كلَّ أسرار جسدي، فتراهُ يستفزّ رغبتي ويحملني إلى عالمٍ آخر.

جلسنا أمام النافذة المطلّة على غابة الصنوبر نحتسي النبيذ من الكأسينِ ومن الشفتينِ. بزغ الفجر وأنا بين أحضانه عارية، حرّة، سعيدة. ارتديتُ ثيابي وخرجتُ في الصباح الباكر. غازلْتُ الورود أمام الكهف ودلّلتُها. أخبرْتُها أنّ قلبي يغمرُهُ الحبّ وأنّ ضوءًا ما ينبعث من أعماقي. تمشّيتُ بين أشجار الصنوبر، غصْتُ في ذاكَ الضوء، فرأيْتُ نفسًا تحترق في متعة مُحرَّمة تصارع ظلمة الحياة وشرودها في المجهول. يأتيني الصوتُ العميقُ بصدًى مخيفٍ: تيقّظي يا ريف. السراب يسكنُكِ! تذكّري أنّكِ متزوّجةٌ، ولنْ تتخلّي عن زوجِكِ وأولادِكِ مهما زادَ في العمق غوصُكِ.

قطع عليّ قدومُ عاصي كلَّ الأفكار التي كانَتْ تتقاذفني جيئةً ورواحًا.

- انتهيتَ من قراءة الصحف؟
- نعم.
- أليسَ متعبًا سماعُ كلّ تلكَ الأخبار السيئة صباحًا.
- بلى، ولكنّهُ جزء من عملي، رغم أنّني بدأتُ أشعر بالملل، فمهنتُنا تسقط وتفقد بريقها.

أصبحْنا مطيّة للسّياسات الفاسدة وفقدْنا الموضوعية.

يرنّ هاتفهُ، يعتذرُ لأنّ الأمرَ ضروري، يجيب ويمشي خطوتين إلى الأمام. تشدّني حشريتي إلى معرفة الأمر الضروري، لكنّهُ يتكلّم

بلغةٍ لا أفهمُها. ينهي مخابرَتَهُ سريعًا، ويحملُ هاتفَهُ الآخَر بيدِهِ. ثوانٍ ويرنّ، تستمرّ المحادَثة لأكثرَ منْ سبعِ دقائقَ.

- أعتذر حبيبتي، ولكنْ كان عليّ أن أجيب!

- هل من أخبار جديدة؟

- لا شيءَ يتغير في حالِنا سوى كثرةِ الموت!

- أيّ لغةٍ هذه؟ لم أستطعِ التمييز.

- إنّها صديقتي من مجلّة دير شبيغل الألمانية.

- تجيد الألمانية أيضًا؟!

- قضيتُ أكثر من أربعِ سنواتٍ متنقّلًا بين فرنسا وألمانيا.

- إذًا هيَ ليسَتْ صديقة فحسبُ.

حمل الهاتف بيده وفتح WhatsApp كي يريَني صورتها!

كانتْ سيّدة شقراء يناهز سنّها السبعينَ عامًا! شعرْتُ بالارتياح، ولكنْ ماذا لو كانتِ ابنتُها صبيّةً جميلةً؟

- عاصي، أخافُ جرأَتَكَ أحيانًا. أخاف عليكَ وأخافُ منْ مكالماتنا. قد يكونُ هاتفكَ مراقبًا.

- طبعًا مراقب.

- أيّ جنون هذا؟!

- وكيف للحبّ أنْ يكونَ إنْ لم يكن جنونًا؟

- لا بدّ لقصّتنا من نهاية. كم أتألم حين أفكّر في ذلك!

- إذًا لا تفكّري ولا تذهبي بعيدًا. دعينا نعِشْ متعة اللّحظة. أنتِ لحظةُ فرح في حياتي ولحظةُ حلم جميل ولحظة تحدٍّ ولحظةُ مغامرة ولحظةٌ مفتوحة على كلّ الاحتمالات. أحبّ فيك أنّكِ مجموعة نساء بامرأةٍ واحدة، تختصرينَ تاريخ حوّاء.

عدْنا معًا لتناولِ الفطور، فتناولَني على مائدة الحبّ. كانتِ الألوان منعكسةً على الغرفة، تسدل خيوطًا من الرغبة تتناغمُ مع حركات جسدي، فتلبّي مزيجًا من الحبّ والشهوة والألم. منْ وراء تلك النافذة، كانتِ الأشجارُ تتمايلُ على موسيقى نشوتي، وأمامَها كانَ مَنْ يقودُني إلى مساحاتٍ ألمسُ فيها شغفي. كنْتُ عاجزة تمامًا عن احتواء شعوري. جسدانا تصبّبا عرقًا، وروحانا هامَتا في بحورٍ من اللّذة. كانَتْ أناملهُ تودّع كلّ منحنيات جسدي. أغمضْتُ عينيّ قليلًا وهو لمْ ينفكَّ غارقًا برعشاتِهِ السمفونية. كانَ يتأمّلُ جسدي العاريَ فيما يدايَ تعبثان بشعره. همتُ في حضنه أكثرَ، مرّرتُ رأسي على صدره وتمرّغتُ كقطّة محتالة، أنظرُ إلى عينيهِ بين اللّحظة والأخرى. السفرُ كانَ هادئًا وطويلًا، قطعَهُ علينا بريقُ الرعدِ، فأمطرَتِ السماءُ نشوةً وفاضتْ على شطّ الإغواء رعشة الهُيام.

كنتُ اعتدْتُ وجوده البركاني، فاستبقتُ الرحيلَ وشعرتُ بالوحدةِ قبل أن أغادر. كيفَ أعود وقبلاتُهُ تسكن كلّ زواياي؟

استسلمْنا لنومٍ عميقٍ بعد عناء المتعة. رأسي على صدره ويداه تلفّانني دفئًا وعبيرًا، كما تعانق الأرضَ شجرةُ تفّاحٍ ظمأى.

قصيرةً كانتْ طريق العودة إلى بيتي، رغم المسافة الطويلة. المزاح «الصبياني» والضحك الطفولي كانا رفيقَيْنا حتّى باب البيت. انسحبَ تاركًا لي قبلةً وأملًا باللقاء القريب في البرازيل. اتّفقنا أنْ نلتقيَ في ريو دي جانيرو وأن نمضيَ ثلاثة أيام معًا. قال إنّ ريو ستكون لنا وحدنا وأنّ شمس كوباكابانا ستشرق لنا وحدنا، وأنّ نقشَ خُطانا على الرمال سيبقى ليرويَ سرّنا.

لم أنمْ تلكَ اللّيلة، ظللْتُ أتقلّبُ وأعيدُ تفاصيلَ لقائِنا. أجملُ لحظاتِ الحبّ هي التي تجعلُكِ تشعرينَ أنّكِ سيّدة الكون، أنّكِ سلطانة على الحياة، أنّ الكلمات تهوي أمام عصفِ الحنين.

برغم السهاد ورغم طعنات الخطايا، إلا أنّ الجميع سألني في اليوم التالي عن سبب حيويتي ونقائي. ضحكْتُ وقلتُ: «وأينَ العجب في ذلك؟» تردّ جارتنا أمّ سعيد: «لا بدّ منْ أنّها سعيدة للقاء زوجها!» تُردِف أمّي - خِلتُها بذلك تستنطقني: «إنّه الشوق».

ودّعتُ الجميع واحتضنْتُ سري. لن يفهمَني أحدٌ.

وكان لبيروتَ حصّة من الوداع. وفيّةٌ أنتِ يا أمّ الشرائع ويا درّة

الشرق. أوّاهٍ، ما أبعدني عنكِ تمنّعًا وولاءً! كان لسفري هذه المرّة طعمُ المرارة. أكثرُ من سببٍ كان يجعلني أشعُرُ بعبثية الحياة وبرغبةٍ جارفةٍ في البكاء. أيقنْتُ ذاك الشعور الغامض المتناقض، يحمل عدّة وجوه، من سعادة وحزن إلى قلق وترقّب. كيفَ يسعني النظرُ إلى عينَيْ أمين؟ كيفَ سأمنْحُهُ جسدي وكأنَّ شيئًا لم يكنْ؟ كيفَ أفسّر كلّ ما يحدث؟ أشكُّ أنّ مثلَ هذا الإحساس الطافح بالألم قد ساورَني من قبلُ. دخلْتُ في هواجسَ وحدَهُ اللهُ يعلمُ بمتاهاتِها. ما معنى أنْ أنسى كلَّ ما يحيطُ بي سوى عينَيْهِ، وأنْ تلازمَني أنفاسُهُ وأنامله الرقيقة؟ كان دفؤُهُ يسحرني، وجنونه يتفجّر فيّ كالبركان. أحسّ بأنّي امرأة أخرى عندما أكون مع عاصي، امرأةٌ أسعد وأجمل.

بدَتْ كامبوريو باردةً وحزينة. كان السائقُ، كالعادة، ينتظرُنا في المطار. عدْنا إلى البيت لأجدَ أمينًا في انتظارِنا. كانَتِ الساعةُ الخامسةَ عصرًا، وليسَ من عادات أمين العودةُ إلى البيتِ في هذا الوقت، حتّى بعدَ عودتِنا منَ السفر! لعلّ حضورَهُ فاجأَني، لكنّني أخفيتُ ارتباكي، وما أخفيتُ عناقي البارد. توجّهْتُ إلى غرفتي، لأستحمَّ وأدّعيَ التعب الشديد، ثمّ قصدتُ غرفة الأولاد كي أطمئنَّ أنّ كلّ شيءٍ على ما يُرام. ابتلعْتُ حبّة منوِّمة وتركْتُ لفابي، العاملة التي تعتني بالأولاد، تدبير الأمور. عاد أمين إلى مكتبِهِ واستلقيْتُ أنا على سريري أرحّبُ بسلطان الكَرى.

في النهار، أهيم في بيتي ضائعة، لا شيءَ سوى كلماتِ عاصي يمنحُني ثغراتٍ منَ الهدوء لاقتحام ظلمة حياتي. عادَ إليّ ذلكَ الإحساسُ الرهيبُ بالذّنبِ، لكنّني، على الرغم من ذلك، لم أدعْ أمينًا يقتربُ منّي. حججي كانَتْ كثيرةً، وتَفَهُّم أمين كانَ كبيرًا.

اشتقْتُ إلى عاصي شوقًا هائلًا باتَ يعذّبني عذابًا شديدًا لا يمكنُ

احتمالُهُ. إنّ نصفي يريد أنْ يبكيَ والنصف الآخر يريدُهُ. تراكَمَتِ السحبُ الكثيفةُ المُظلِمةُ في سماء روحي، سحبٌ تَعْتِلُ يأسي وحبّي وذنبي. بدأْتُ أشعرُ أنّني أخْفَقْتُ في كلّ شيء، حتّى في أمومتي. تمنّيْتُ الموتَ إذ هو المَنفَذ الوحيد قبل افتضاح أمري. أمامي حلّانِ لا ثالثَ لهما: إمّا الانتحارُ وإمّا الطلاقُ.

يا الهي! ما هذا التفكير اللّاعقلاني؟ طلاق؟! طالما كنْتُ ممّنْ يلتزمونَ بواجباتِهِمْ، ممّنْ يرونَ الحقّ ولا يحيدونَ عنْهُ، حتّى وإنْ كانَ الثمن حرّيتي. ما الذي سيدفعُني إلى الطلاق؟ تلكَ الشجاراتُ التافهةُ التي تحصلُ بينَنا، ونادرًا ما تحدث؟ هذا الروتينُ العُضالُ الذي يصيبُ كلَّ عائلةٍ؟ انتماءُ كلٍّ منّا إلى اتّجاهٍ مُعاكِس؟ هلْ هذهِ الحججُ كافيةٌ لتدميرِ زواجي؟ وتلكَ الأيقوناتُ الثلاثُ... مذْ بدأَتِ الحياةُ معَها، أُلغِيتْ جميعُ النهاياتِ. همْ مواسمُ الحصادِ والفصولُ التي لمْ يعرفْها تقويمُ البشرِ، همْ مصابيحُ النورِ فوقَ الغيوم التي عدَدْناها صدِئتْ. أيّ انتحارٍ يا ريفُ؟ يقتلُني الموتُ ألفَ مرّة وأنا أتشرّدُ بينَ أهدابِ عيونِهم الباكية، أسمعُ أنينَ صراخِهمْ يدوّي صاخبًا في مخيّلتي. الأمّ تُناضِلُ للبقاء على قيد الحياة كي تنعمَ بأولادِها، ولا تسترخصُ النفسَ فتقفزُ عاريةَ الضميرِ نحوَ قاع المجهولِ. لنْ يواصِلوا العيشَ بسلامٍ إنْ أقدمْتُ على الانتحار.

على مدى أسبوع كاملٍ، حاولْتُ اختلاقَ الحجَج. أحملُ جسدي

وأطير بهِ بعيدًا عن أمين، خشية أنْ يشتمَّ عطرَ عاصي. إنّ عطرَ الخيانةِ ليس بزائلٍ عن ثوبِ العفافِ.

حلَّ نهارُ الأحدِ، التقَيْنا، بصحبةِ الأولادِ، أصدقاءنا وذهبْنا إلى السينما. مضيْنا بعدَها إلى شاطئ برايا برافا، لنأكلَ تابِيوكا (Tapioca)، العجينة التي شاعتْ وسادَتْ في معظم الشوارع لأنّها تحافظ على الوزنِ. لذلكَ اتّبعَتْها عارضاتُ الأزياء في البرازيل، فانتشرَتْ كالنار في الهَشيم. بعدَ نهار طويلٍ حاولتُ فيه إفراجَ الكَدَر، حان الرجوعُ إلى البيت. ما إنْ دخلْنا حتّى راحَ أمينٌ يداعبُ شعري. قلْتُ: «أظنّ أنّني سأصابُ بالزكام. أشعرُ بدوار وتعبٍ. غدًا يومٌ طويلٌ، سأساعدُ ميراي في تسْعير البضاعة الجديدة، ثمّ سأصْطَحِبُ ألينَ إلى عيدِ ميلادِ صديقتِها غابرييلّا، ومنْ ثمّ..». لفّني أمينٌ بينَ ذِراعَيْهِ وقالَ: «أخبِريني ما بكِ. أعرفُكِ جيدًا يا ريف، تبدينَ مختلفة تمامًا».

يعرفُني جيدًا؟! أشكُّ أنّني أعرفُ نَفسي. فكّرْتُ مليًّا وتساءلْتُ: «هلْ أجازفُ وأقولُ إنّ قلبي الذي أَحبَّهُ عمرًا ما عاد يرى الكونَ إلا في عينيّ سواه». تركْتُ صمتي يحزّني وانسحبْتُ مِنْ بينِ ذِراعَيْهِ. عادَ وشدّني إليْهِ، أحسَسْتُ برغبةٍ في البُكاء، لأنّني أظلمُهُ. جلسْتُ قبالَتَهُ وحاوَلْتُ إخفاء يديّ المُرتجِفتينِ. قلْتُ إنّني أشعرُ بإنهاكٍ شديدٍ وضيقٍ في صدري، وإنّني أعيشُ نوباتٍ منَ الحزنِ المفاجِئِ، وإنَّ الأمرَ يسوءُ يومًا بعدَ يوم، وإنّ انشغالَهُ الدائمَ يجعلُني أشعرُ بالوحدةِ، وإنَّ...

أدركْتُ أنّ قدرتي على السيطرة قدْ أخفقَتْ، وبات عليّ الانتباه إلى بعضِ ما أقولُ. كلُّ ما في داخلي يُنْذِرُ بانفجار لنْ أتمكّنَ بعدَهُ من ضبطِ الأمور. أمينٌ زوجٌ مثالي ولكنْ ليس إلى درجة تقبُّل الخيانة، ولا حتّى تقبّل اختلاقِي التهَمِ ورميِها جزافًا عليه. أتدارَكُ الأمرَ، أقولُ له ودموعي، الآن، تسبقُني: «أأنا مريضةٌ؟ مصابةٌ بالاكتئاب؟ فاشلة؟»

ـ «هدّئي منْ روعِكِ، حبيبتي. منَ الطبيعي أنْ يمرَّ الإنسانُ بفتراتٍ تجعلُهُ يشعرُ أنّهُ أخفقَ في تحديدِ خياراتِهِ. أنتِ أمٌّ رائعةٌ وزوجةٌ مثاليةٌ، وأنا عليّ الاعتناء بكمْ أكثر. العمل ومشاكل البرازيلِ قدْ امتصّتْ وقتي إلى حدٍّ نسيْتُ به نفسي وعائلتي».

كلامُهُ لم يزدْني الا مرارةً وإحساسًا بالخيبة والعار. كان وقعُها عليّ وقعَ مقصلةٍ على عنق سفّاح مرفوض. أجهشْتُ فضمّني، مسحَ دموعي بشفتَيْهِ وقبّلني، ألقى وجهي بين يديه وقالَ:

- Nena، أنتِ تحتاجينَ إلى طبيبٍ.
- كنْتُ أفكّر بالأمر.
- لمَ لا تلبّينَ الدعواتِ المُتَعلّقةِ بالتغذِيَةِ والصحةِ أوْ رُبَّما تَعودينَ إلى الدراسةِ مِنْ جديدٍ؟

ـ قدْ يساعدني حضور الاجتماعات والمؤتمرات، أمّا الدراسة فحتمًا لا.

نخلصُ إلى أنّني سأتّصل بالطبيبِ غدًا لإجراءِ بعضِ التحاليل اللّازمة.

تكاثَفَ الضباب في الأجواء، وكانَتِ السماء قدِ اسوَدّتْ قليلًا. كانَتْ ميراي تهمّ بإقفالِ متجرِها حينَ وصلْتُ. سألْتُها أنْ نذهبَ للعشاء، فردّتْ إنّ غوستافو في انتظارِها. أجبْتُ بصرامةٍ: «الموضوع ضروري».

دخلنا مطعمًا جديدًا، طلبَتْ ميراي منَ النادل أن يحضّر لنا طاولةً على الشاطئ، خارجَ المطعم. أجابَها باستغرابٍ: «sim Senhora». تضحكُ ميراي، وتقولُ: «مسكينٌ. اعتقدَ أنّنا نريدُ جوًّا رومانسيًّا». في الواقع، كانَتْ ميراي تريدُ التدخينَ، وهنا القانونُ يمنعُ التدخينَ في أيّ مكان مسقوفٍ. أفكّر كيفَ عليّ أنْ أبدأَ. قد تكون ميراي صديقتي الفُضلى، لكنّني مَثَلُها الأعلى في الحياةِ الزوجيةِ والاجتماعية. كيفَ ستبدو صورتي أمامَها؟! أتُراها تتقبّلُ القصّةَ وتفْهمُ ما أحياهُ؟ أواصِلُ التفكيرَ والشرود ووَضْع الاحتمالاتِ والتخميناتِ، ولكنْ، ما الذي سيكونُ أسوأَ منْ تخبّطي وحيدةً.

تبدو ميراي سعيدةً، منشرحة، وعلى وجهها إشراقةٌ لافتة. كيف بي أعكّرُ صفوها؟ تخبرُني أنّ غوستافو اشترى شقّة في كامبريو، وأنّهُ

بعدَ تقاعُدِهِ سيعيشُ في هذه المدينة إلى جانبِها. تشعلُ سيجارتُها، تنظرُ إليّ وتقولُ: «كلّ شيءٍ يتغيّر باستمرارٍ، ولكلّ خَطبٍ حلٌّ مهما تأخّرَ. منْ قبلِ سفرِكِ، أراكِ تعاندينَ نفسَكِ عن البَوح، تائهة وحزينة. لا أريدُ معرفةَ السببِ إنْ كنْتِ غيرَ جاهزةٍ لإخباري، ولكنْ اعلمي بأنّي إلى جانبِكِ ساعةَ تشائينَ».

اخترْتُ الظلام سبيلًا، وخانَني القدَرُ معَ الحبّ. بكلّ بساطةٍ، امتَثَلْتُ للأوامر.

التوتّر جعلني أفكّر بالتراجع، إلا أنّ الصمتَ غدا صعبًا والتراجعَ أصعبَ. لمْ أكنْ بحاجةٍ إلى أيّ إلحاح؛ كنْتُ جاهزةً لإخبارِها بكلّ شيء. لا أعلمُ إنْ كانَ السرُّ أرهقَني أمْ أنّني كنْتُ أمهّدُ لطلبِ المساعدةِ حينَ يأتي عاصي إلى ريو دي جانيرو. دونَ تردّدٍ واصلْتُ: «أرى نفسي وحيدةً فيما أملكُ كلَّ شيءٍ لأكونَ سعيدة. أتعلمين؟ في داخلي شيءٌ هشٌّ يتكسّرُ ويتناثرُ».

احتفظَتْ ميراي بصمتِها، وحاولَتِ التركيزَ معي. واصلْتُ كلامي وفي صوتي غصّة: «للخريفِ مع الأرض حكايةُ أوراق تائهة، ولحكايتي مع الحبّ طعمُ ذاكَ الخريف. حبّهُ أربَكَ زمني وشتّتَني على أرصفةِ المُدُنِ، أناجي نوافذَ الخلاص. وحيدةً في عَتَمَةِ القدَرِ، في عقم الألفِ سؤالٍ، سلكْتُ طريقًا أذرت الريح ترابها، تشرّدْتُ على شواطئ الأحلام، في جزرٍ لا أسماءَ لها. هناكَ تذوّقتُ الفتنة كأسًا...وسكرْتُ.

هناكَ رقصْتُ فرحًا...ونسيتُ. عدْتُ وبكيتُ، مزّقْتُ ضعفي وانتحبتُ. سافرْتُ بحثًا عن اليقين وعبثًا حاولتُ. وجعٌ ينامُ وآخرُ يصحو. يتكسّر اللّيلُ براكينَ تحرق غفوتي، تهوي النجوم في غفلةٍ، تتمزّق الدموع على وجنات الفجر. أفردُ جناحي لضوء النهار. ينبثُقُ عطرُ الأرض فتتناثر ذكراه في كلّ مكان. يُلبِسُني الخريفُ بحضورِهِ الآسِرِ ثوبَ الشوق والحنين، ويطعنُني الذّنبُ بسكّين».

تشعلُ ميراي سيجارتَها الثالثة وعيناها الواسِعتانِ ازدادَتا توسّعًا. تزيحُ خصلةً منْ شعرِها عن جبينها، تأخذُ نفَسًا عميقًا ويطولُ زفيرُها، وقبلَ أن تنطقَ، أقولُ:

- لا تلوميني، أمامَكِ امرأةٌ أثقلَها العشقُ حتّى غرقَتْ، ولا سبيلَ للرّجوع.

لا بدّ أنَّ ميرايَ فوجِئَتْ بجرأتي أوْ بوقاحتي... لا أدري. يطولُ الصمتُ بينَنا. تنزلُ عليّ صاعقةُ الصورة، وكأنّني سلطانةٌ نُزِعَ عنْها تاجُها، لتعودَ جاريةً. لمْ أقاطِعْ صمتَها، تركْتُها تُقلّبُ كلماتي. تبتسمُ وتعدّلُ جلستَها، وتقولُ بصوتٍ خافتٍ: «رَحْ أقعدْ جالِسْ بَسْ رَحْ إحكي أعوَجْ، لأنّهُ باختصارٍ، يا صديقتي، لا وجودَ للمنطقِ أحيانًا في لغة الحبّ، لا عدالةَ في ثوراتِ العِشقِ، لأنّهُ نادرًا ما تأتي الانقلاباتُ العشقيةُ على قَدْرِ التضحياتِ. تتسلّى المصادفات بأقدارِنا يا ريف. أنا أحبُّ برازيليًا وأنفقُ العمرَ في انتظارِ الفرصِ، وأنتِ الآنَ كمَنْ يستندُ إلى جدارٍ مُصَدَّعٍ، تتوقّعينَ سقوطَهُ في أيِّ لحظةٍ، وتحتاجينَ إلى

معجزةٍ للنّجاة. الدخولُ في دهاليزِ الحُبِّ مجازفةٌ، وفي حالَتِكِ... يا إلهي...يا لغَوايَتِكِ!».

تفيض عينايَ دمعًا، تتلعثمُ الكلماتُ وأشعرُ برغبةٍ في مغادرةِ المكانِ. لمْ أقُلْ شيئًا، ناولْتُها الخلوي وفتحْتُ على آخرِ رسالةٍ وصلَتْني منْ عاصي: «ستتساقطينَ في ريو كمطرٍ منْ لؤلؤٍ على جسدي، ستغطّي يدايَ مرمرَكِ الإلهي الأسمرَ حتّى يثورَ. ملَلْتُ الانتظارَ وأشتاقُكِ حدَّ الهذَيانِ».

«جميلٌ جدًّا»، ردَّتْ ميراي بشيءٍ منَ السخريةِ! أعادَتْ إليّ الخلوي وواصلَتْ: «هذا دليلٌ على أنّكِ مصابةٌ بداءِ العِشقِ، ممّا يتسبّبُ بفقدانٍ في الذّاكرةِ. أنسيْتِ أنّني لا أجيدُ قراءةَ العربية؟ وَضْعكِ صَعْب!».

ـ «سنلتقي في ريو! قريبًا جدًّا سيأتي إلى هنا، ميراي ... أنا مُتعبةٌ جدًّا ولا أملِكُ قدرةَ السيطرةِ على ما يجري. حاولْتُ البحثَ عنِ السببِ..». تقاطعُني ميراي وتقولُ بحدّةٍ:

- لا يهمُّنا البحثُ عنِ السبب يا ريفُ، علينا أنْ نبحثَ عنِ الحلّ.
- أمين بدأ يشعرُ بحالي، وقدْ طلبَ منّي استشارةَ طبيبٍ أوِ العودةَ إلى الدراسةِ. حتّى الأولادُ يلاحظونَ توتّري الدائمَ.
- معالجةُ النتائجِ تأتي لاحقًا، أمّا الآنَ فعليكِ بتحكيمِ العقلِ. لسْتِ المعنيةَ الوحيدةَ؛ أولادُكِ وزوجُكِ أيضًا معنيونَ. أمّا منْ جهتِهِ هو، فوحدَهُ المعني. احترِسي يا ريفُ.
- لعبةُ المَمْنوعِ أدخلَتْني في غياهبِ العُمرِ، وعاصفَةُ حبِّهِ أبطَلت مفعولَ العَقْلِ.

ألهَيْتُ نَفسي بالرياضةِ وبعضِ المشاريعِ التي كنْتُ أزجُّ اسمَ ميراي بها، كذهابي للتبضّعِ معَها منْ مدينةِ Brusque، أو الذّهابِ في رحلاتِ التأمّلِ. وكانَ أمينٌ يشجّعني، على أملِ أنْ أستعيدَ نشاطي السابقَ وحيويتي.

أبدو أكثرَ طمأنينةً، أؤدّي واجبي وأهتمّ بأولادي. استعَدْتُ قليلًا منْ ضبطِ النفسِ ولا ريبَ أنّ حالي تحسّنَتْ. لنْ أفسدَ حياتي بالتفكيرِ: ما حدث قدْ حدث، ربّما لسرٍّ ما لا بدّ منِ اكتشافِهِ لاحقًا. أخرجُ إلى الحديقةِ لشربِ قهوتي، أجولُ في نظري على أزهاري، أراها يابسةً، ذابلةً. منذُ فترةٍ لمْ أهتمَّ بها، ولمْ أُعطِها ما تعطيهِ هيَ لي. جلسْتُ على الكرسي، مقابلَ شجرةِ acerola، أشردُ في حبّاتِها الحُمرِ الصغيرةِ، وألتقطِ من الغصنِ المتدلّي أمامي حبّةً. هكذا كانَتْ دائرةُ همومي قبلَ عامٍ! ثمَّ أذوقُها، فأجدُ في حامِضِها طعمَ أيامي الرتيبةِ. لا يسَعُ الإنسانَ أنْ يفهمَ كلَّ شيءٍ: سأحيا وسرُّ حبِّهِ هوَ طاقتي، وإلى أنْ يحلَّ اليومُ المشؤومُ ويُكتَشَفَ أمري، سأعيشُ زمني!

في تمامِ الساعةِ الواحدةِ ما بعدَ منتصَفِ اللّيلِ، استلقيْتُ على الأريكةِ في غرفتي. شعرْتُ بأنّي ضيفةٌ على هذا المكانِ، واستبدَّتْ بي رغبةٌ عارمةٌ في الهروبِ منْ كلِّ شيءٍ. وارفُ الظلماتِ اقتحمَني فازددْتُ وحدةً وانزواءً. أنفَقْتُ اللّيلَ كلَّهُ أكابدُ الأفكارَ. أعودُ وأقولُ لنفسي إنّ الأمورَ ستكونُ على ما يُرامُ، وأقترحُ عليها هدنةً حقيقيةً معَ القدرِ.

أواظِبُ منْ جديدٍ على حضورِ صفوفِ التأمّلِ، تحيطُني ميراي باهتمامٍ لا يخلو، في بعضِ الأوقاتِ، منَ النصائحِ العاقلةِ، الا أنّها كانَتْ تضعفُ أمامَ كلماتِ عاصي حينَ يبعثُ لي بالرسائلِ، وتطلبُ منّي تفسيرَ بعضِ العباراتِ بالبرتغاليةِ.

«نحنُ أحوجُ إلى جيلٍ منَ الشبابِ النزيهِ البعيدِ عنِ السياسةِ الفِئَويةِ المُنحطّة». بدا عاصي واثقًا في مقابلتِهِ التلفزيونيةِ، كأنّهُ يرى اهتمامَ مُستمِعِيهِ ومُشاهِدِيهِ بما يقولُ، فأخذَ يُحاضِرُ ويحضُّهمْ على فهم خطورةِ المرحلةِ. قالَ وهوَ ينظرُ إلى مُقدِّمِ البرنامج: «لا خلاصَ سوى بوحدتِنا وتفويتِ الفرصةِ على عدوِّنا الأوحدِ إسرائيلَ، وإعادةِ البوصلةِ إلى القضية الأمّ فلسطينَ. انظرْ أينَ أصبَحْنا! مَنْ، بعدُ، يتذكّرُ معاناةَ أهلِنا في فلسطينَ؟ يساهِمُ العربُ أنفسُهمْ في ذبح كراماتِهِمْ، ثمّ يقرأونَ الفاتحةَ على ضريحِ الوطنِ ويبكونَ تخاذلَهمْ. ألمْ يُدركوا أنّنا دخلْنا منعطَفٍ خطيرٍ تقودُهُ التنظيماتُ الإرهابية؟ المسألةُ هيَ إعادةُ صوغ الواقعِ العرقي والقومي وفقَ استراتيجيةٍ تتناسبُ والمُخطّطَ الأميركي الإسرائيلي. ماذا تعني كلُّ التقارير التي تنشرُها الصحفُ

الأجنبية؟ هيَ كلّها تسريباتٌ منْ دوائرِ الاستخباراتِ الأميركية. الهدفُ إضعافُ الدولِ العربية، تجزئةُ المُجزَّأ، إنعاشُ الطائفية ما خبَتْ...».
يقاطِعُهُ مُقدِّمُ البرنامج ويأخذهُ إلى مكان آخر، ويسألُهُ:

«علِمْنا أنّكَ قدْ تُستَدعى إلى المَحْكمةِ الدولية، معَ الصحفية الألمانية أدالينا المقيمة في هامبرغ، لكونِكُما حصَلْتما على برقياتٍ دبلوماسيةٍ سرّيّةٍ في عملية اغتيالِ الحريري. هل هذا أيضًا تسريبٌ منَ الاستخباراتِ الأميركية؟».

فكّرتُ، وقدِ اعتراني بعضُ الخوفِ: أدالينا... أليسَتْ تلكَ العجوزَ منْ مجلّةِ ديرشبيغل الألمانية؟ كنّا معًا حينَ تكلّم معها! يا إلهي، أخشى على عاصي أنْ يكونَ في خطر.

بدا الارتباكُ واضحًا على وجهِهِ، ولكنّهُ أجـابَ بشيءٍ منَ الغموض: «إنِ استُدعِيتُ فسأذهبُ، بالرغمِ منْ تحفّظي على أداءِ هذهِ المحكمةِ بالذّاتِ، والقضاءِ الدولي بشكلٍ عامّ».

راوغَ قليلًا، كأنّهُ لمْ يكنْ يودُّ الإفصاحَ عنْ معلوماتٍ حولَ الوثائقِ التي يملكُها.

أذكرُ، خلالَ زيارةٍ لي في بيتِهِ، أنْ كانَ يتابعُ جلسةَ المحكمةِ الدوليةِ في محاكمةِ تلفزيونِ الجديدِ والإعلاميةِ كرمى خيّاط. كانَتِ التهمةُ التحقيرَ وعرقلةَ سيرِ العدالةِ. استفزّهُ، يومَها، أيّما استفزازٍ،

استباحةَ الفضاءِ الإعلامي منْ قِبَلِ محكمةٍ جنائيةٍ أُنشِئتْ للكشفِ عنْ هويةِ قتَلَةِ الحريري. قالَ لي شارحًا، وبعصبية: «ربّما منْ حقّ المحكمةِ استدعاءُ صحفيين، وربّما في الأمرِ تسييسٌ ما، ولكنّ الأكيدَ أنَّ هذهِ المحكمةَ أُنشِئَتْ خلافًا للأصولِ الدستورية. وعلى أهميةِ قضيةِ الشهيدِ وأهميةِ معرفةِ الحقيقةِ، إلا أنَّ شروطَ إنشاءِ محكمةٍ دوليةٍ لا تتطابقُ وهذهِ القضيةَ. كمْ منْ جرائمَ ارتُكِبَتْ ضدِّ الإنسانيةِ؟ وكمْ منْ مجازرَ مروّعةٍ، وكمْ منْ إباداتٍ جماعيةٍ وجرائمِ حربٍ حصلَتْ... أينَ الحقّ بتقريرِ المصيرِ لشعبِ فلسطينَ التي تُعتبَرُ الدولةَ الوحيدةَ التي لا يزالُ شعبُها يطالبُ بهِ؟ لماذا لا تُقامُ محاكمُ دوليةٌ لمحاسبةِ أسوأِ نظامٍ عنصري يرتكبُ، كلَّ يومٍ، أبشعَ الجرائمِ والانتهاكاتِ؟ كيفَ نثقُ بعدالةٍ دوليةٍ هيَ عنِ الإنصافِ والعَدلِ بمنأى. مئةُ سؤالٍ وسؤالٍ تُطرحُ حولَ تلكَ الجريمةِ الشنعاءِ، ومَنِ المُستَفيدُ؟».

ما إنْ أنهى عاصي الحلقةَ حتّى هممْتُ بالاتّصالِ بهِ مرّةً تلوَ الأخرى، ولكنَّهُ لمْ يُجِبْ! أبعثُ بالرسائلِ وأنتظرُ أنْ يردّ عليها، إنّما دونَ جدوى.

يومٌ آخرُ قدْ مرّ، وهذهِ رسالتي الرابعةُ ولا خبرَ. قلقي عليهِ انقلبَ جزعًا. ما – عسى خيرًا – قدْ يكونُ أصابَه؟ أتهديدٌ أمْ سفرٌ أمِ انشغالٌ غيرُ مألوفٍ بالعملِ أمْ إنّ «حليمة عادَتْ لعادتها القديمة» فاختفى؟

في صباحِ اليوم التالي، أستيقظُ لأجدَ رسالةً منْ رقم لا أعرفُهُ: «حبيبتي، أعلمُ أنّكِ قلقةٌ لأنّني لا أجيبُ على رسائِلِكِ، فاعذريني. سوفَ أخبرُكِ بكلّ شيءٍ وجهًا لوجهٍ في مدينتِنا ريو. سأحاولُ فعلَ المُستحيلِ كيْ أكونَ معَكِ منتصفَ الشهرِ القادمِ، فنحتفلَ معًا بعيدِ ميلادي. إنّي أحاولُ التغلّبَ على كثيرٍ منَ الصعوباتِ، ولا بدّ من أنْ أخرجَ سريعًا منْ هذا المأزقِ. ما يُحاكُ لنا فظيعٌ، وأخشى أنّنا سقطْنا في هوّةٍ عميقةٍ منَ التزوير والتحوير. التفاصيلُ كثيرةٌ، ولا يتّسعُ المجالُ لذِكْرِها. تذكّري أنّكِ قضيتي الأسمى وأنّني أحبُّكِ كما أحبّ الأرضَ والشجر. لا تردّي على هذهِ الرسالةِ، وانتظري منّي مراسلتَكِ في وقتٍ قريبٍ».

هُمامٌ هوَ في زمنِ الدناءةِ والرداءةِ. ليسَ، كسائرِ رجالِ بيئتِهِ، لاهثًا وراءَ الثروةِ وتوافِهِ الأمورِ، بلْ إنّه فانٍ في القضية حدّ اللّحمةِ. من قلمِهِ تنضحُ زهورُ القوميةِ وتُنيفُ منائرُ العروبةِ. لا عدوَّ لهُ في الدينِ والحقِّ والوطنِ إلا إسرائيل.

أظلُّ متمدِّدةً على سريري، وأعيد قراءةَ رسالتِهِ لأكثرِ منْ مرّةٍ. أشعرُ بالقلقِ علَيْهِ. أودُّ لو تمرُّ الأيامُ بسرعةٍ لنلتقيَ في ريو فيهدأ البالُ وينفرجُ الهمُّ ويُسَرُّ الجَنانُ. نهضْتُ منَ السرير وتوجّهْتُ إلى المطبخِ، قمْتُ بتقطيعِ بعضِ شرائحِ اللّحمةِ وتحضيرِها، إلى حينِ عودةِ الأولادِ منَ المدرسةِ. نظرْتُ إلى الخارجِ، كانَتِ السماءُ زرقاءَ وهادئةً، فقرّرْتُ الخروجَ إلى الشاطئِ للتّمويهِ عن نفسي والتمتّعِ بالطقسِ الجميل.

حلَّتْ نهايةُ الأسبوعِ ومعَها ذكرى ميلادِ ابنتي ألين. أعدَدْتُ لها حفلةً صغيرةً. وقامَتْ ميراي بتزيينِ الحديقةِ أمامَ حوضِ السباحةِ بالبالوناتِ، وأتَيتُ بفرقةٍ منْ أربعِ فتياتٍ قُمْنَ بتسليةِ الأولادِ والرسمِ على وجوهِهِمْ، فأدّيْنَ عرضًا رائعًا وعملًا جميلًا. تحلّقْنا جميعًا حولَ ألينَ لقطعِ قالبِ الحلوى وإطفاء الشموع. كانَ جميعُ الأقرباءِ والأصدقاءِ يتهامسونَ، ومنْ حينٍ إلى آخر، يبتسمونَ فأبادلُهمُ الابتسامَ وفي فكري أنّ الكلَّ يراقبُ تصرّفاتي، كأنَّهمْ يقولونَ إنّي أبدو مختلفةً. كانَ أمينُ مُحِبًّا وودودًا، أراهُ يدورُ منْ حولي، ويجعلني محورَ العيونِ الشاخصةِ. في الواقعِ، طالما كانَ أمين هكذا، في الأويقاتِ التي يكونُ فيها بعيدًا عنْ عملِهِ. كنْتُ أشعرُ دائمًا أنّ أمينًا منَ النوعِ الذي يحتاجُني إلى جانبِهِ، في الوقتِ الذي كنْتُ أحسُّ أنّني بحاجةٍ إلى رجلٍ يرعاني ويعتني بي ويكرّسُ لأجلي وقتَهُ.

أنا لسْتُ واثقةً ممّا أريدُهُ، ولا أعلمُ مصيرَ ما أنا فيهِ منْ تَيْهٍ. رحْتُ أفكّرُ في هذهِ الأمورِ وأنا مستلقيةٌ بالقربِ منْ أمينٍ، بعدما غطّ في نومٍ عميقٍ، أتساءلُ ما الذي سيحلُّ بنا.

أغفو ثمّ أصحو مجدّدًا، كمركبٍ مهجورٍ يُطوّحُهُ العُبابُ. أحدِّقُ إلى وجهِ أمينٍ، أحاولُ أنْ ألامسَ جبينَهُ، أنْ أعطيَ نفسي فرصةَ العَودِ إلى الرجلِ الذي بنيْتُ وإيّاهُ بيتَ الحبِّ والثقةِ. عليَّ أنْ أكونَ Dom Quixote، وأنْ أواجهَ طواحينَ الضلالِ.

الثامنَ عشرَ منْ شهرِ أيلولَ. كانَ يومَ جمعةٍ مشمسًا، تتوارى السحبُ خلفَ نقابٍ منَ الصفاوةِ، إلا بعضَ الوَقِحاتِ اللّواتي خلْتُهنّ «نِسوان الفرن»، يُطلِلْنَ عليكَ لتعكيرِ صفوَ صباحِكَ. وكعادتي، في كلّ صباحٍ، أشربُ قهوتي مع أزهاري في الحديقةِ الخلفيةِ للبيتِ. لا أعلمُ، يومَها، لماذا ارتأيْتُ تشغيلَ التلفاز. قلّبْتُ القنواتِ البرازيليةَ، استمعْتُ قليلًا إلى: Ana Maria Braga، أشهرِ إعلاميةٍ في البرازيلِ، تطلُّ ببرنامجِها الصباحي بصحبةِ الببّغاء لورو، وفي جعبتِها خبرةُ خمسٍ وستّينَ سنةً. مُشرِقةٌ، متالقةٌ دائمًا، حاربَتْ مرضَ السرطانِ بإرادةٍ جبّارةٍ. أما هيَ القائلةُ في مقابلةٍ لها أثناءَ تلقّيها العلاجَ:

«Querer viver e decidir lutar são dois grandes passos para vencer o câncer».

(إرادةُ العيشِ وقرارُ المكافَحةِ هما الخطوتانِ الأساسيتانِ للتّغلّبِ على السرطانِ؟).

استمعْتُ قليلًا إلى آخرِ وصفاتِها الغذائية، ثمّ عدْتُ وقلّبْتُ

القنَوَاتِ على المحطّاتِ اللّبنانية، وإذْ على أسفلِ الشاشةِ خبرٌ زُعافٌ امتصَّ دمي وتغلغلَ حتّى عميقِ جوارحي. ألقيتُ ثِقلي على الأريكةِ كطائرٍ أرداهُ معدنُ البارودِ. تجرّدْتُ، لحظتَها، منْ وُثُقِ الزمنِ واشتهيْتُ لو أخترقُ جدارَ الحقيقةِ بصرخةٍ أو اثنتَيْنِ. أيُّ الملائكِ عساهُ ينتشلُني منْ هذا الضرام؟ المكان يضيق بي، فكلُّ ما حولي أسمعُ أنينَهُ كأنّهُ منبعثٌ منْ أضلُعي. كلّ شيءٍ انتهى! ماذا تبقّى ليَ الآنَ؟ جوعٌ وظَمَأٌ وعُريٌ ومنفى. قَسِيّةٌ هي الحياةَ التي أعطَتْني مصادفة الجنونِ، فإذا بها تسلبُني نعيمَ الحبِّ وبريقَهُ!

لا أدري إنْ كانَ ذلكَ حقيقةً أمْ هذيانًا! أجولُ في نظري على كلِّ ما حولي، أحدّقُ إلى حصًى صغيرةٍ جمعَها لي عاصي عندما كنّا معاً في جُبَيْلَ. حملْتُها معي ووضعْتُها في كأسٍ زجاجيةٍ شفّافةٍ، ووضعْتُ فوقها شمعةً كبيرةً، فكنْتُ كلّما اشتقْتُ إليْهِ، أشعلْتُ الشمعةَ، فيتهادى دخانُها على خصور الحصى، فأشمُّ عطرَ يديْهِ.

محا الخبرُ كلَّ ما في ذاكرتي، حتّى وجودي. وجهٌ واحدٌ ظلَّ عالِقًا، ينبّهُني أنّني ما زلْتُ على قيدِ الحياةِ، الحياةِ التي نسجْتُها بجنونِ الحبِّ، الحبِّ الذي ضاعَ بينَ خرائبِ الحربِ، الحربِ التي أحرقَتِ الوجوهَ والقصصَ والوطنَ.

دونكَ الحياةُ أقفرَتْ وأجهضَتْ. كيفَ أحلمُ وحدي ورحيلُكَ هدَّمَ جسرَ العبورِ؟ كيفَ لي أنْ أرتميَ، بعدَ اليومِ، بينَ أحضانِ أوراقِكَ ومقالاتِكَ؟ ريو والصيفُ والشاطئُ تنتظرُ، كيفَ أبرّرُ لحبّاتِ الرملِ غيابَكَ، وهلْ تُراها تُصدّقُني؟ كيفَ لَكَ أنْ تكونَ أنانيًّا حدَّ الرحيلِ؟

رسمتُكَ في سمائي شمسًا بعدَ مطرٍ، ولكنَّ بيروتَ شاءَتْ غَمْرَها بالدمِ والدمعِ. الحنينُ يملأُ هذا الكونَ الفسيحَ، والآهاتُ تتهاوى منْ كلِّ صوبٍ. أَحبيبي، أمدُّ إليكَ يديَّ... خُذْهما، تحسَّسْهما، مُدَّهما بخبزِ الحياةِ ومائِها. مَنْ يداوي رحيلَهُ يا وطني: قانونُ الغابِ أمْ بقايا أسطرِهِ على خارطةِ الوطنِ؟ هذي المَنِيةُ مزّقَتِ الستارَ عنْ جرحِ الحروفِ النابضةِ كِفاحًا.

سيرقدُ، اليومَ، تحتَ أرزةٍ خجلى منْ حُكّامٍ لهمْ في الضيمِ لذّةٌ. بُلَهاءُ مَنِ اغتالوهُ، لأنّهُ يعودُ معْ كلِّ إطلالةِ بدرٍ وإشراقةِ شمسٍ، يحيّيني عبرَ الندى والضوءِ، يضمُّني منْ خلالِ النسيمِ والشذى.

عاصي... وينقطعُ الكلامُ إذْ يغَصُّ بالعَبَراتِ.

سمعْتُ هسيسًا كأنّهُ آتٍ منْ عُمقِيَ المُكْفَهِرِّ. حرَّرْتُ للنّورِ عينيَّ، فوجدْتُ ميراي مُنحنِيةً فوقي، تضعُ حبّةَ الدواءِ في فمي. رحْتُ أحرّكُ رأسي يمينًا ويسارًا، وميراي ترجوني أنْ أهدأَ. ظلَّ صوتُها يتناهى إلى مسمعي: ريف، ساعديني! يأتيني صوتُها منْ بئرٍ عميقةٍ: ر ي ي ي ف! أشعرُ بدُوارٍ كما لوْ كنْتُ أصحو منْ بَنْجٍ عمومي. بَيْدَ أنّي أدرْتُ رأسي نحوَها، وابتلعْتُ الحبّةَ على مَضضٍ، وغرقْتُ، إثرَها، في نومٍ ثقيلٍ.

معْ تلفُّظِ الفجرِ أولى أنفاسِهِ، عادَ إليَّ رجعُ صوتِهِ، وعادَتْ قيودُ اللّوعةِ تأبى إعتاقي. ما عدْتُ أريدُ السيْرَ في موكبِ الحياةِ، وأنا نغمةٌ خرساءُ. بدأْتُ أحوكُ الأيامَ بخيوطِ ذكراهُ، وأخطُّ العمرَ بأكذوبةِ رحيلِهِ. أسيرُ في اللّادنيا كنعشٍ يحوي اللّاروحَ. وفي خلوةِ حُزني، تراءى لي

وجهُهُ، قريبًا منّي كأنفاسِهِ وهوَ يقبّلني. مدَّ يدَهُ إلى رأسي وداعبَ خُصَلَ شعري. أغمضْتُ عينيَّ إغماضَةَ مَنْ يرقصُ تحتَ المطرِ، ضمَمْتُهُ بنعومةٍ إلى صدري، أحسَسْتُ ببرودةٍ تحتَ كفِّ يدي، رفعْتُها عنْ عنقِهِ، وإذا بالدمِ يسيلُ طيَّ أناملي. فجأةً، تركَني وأدارَ ظهرَهُ لي، ومشى خطوتَيْنِ واختفى.

مرَّ الأسبوعُ الأوّلُ، وكانَ الوضعُ قاسيًا جدًّا، يحتاجُ إلى قدرةٍ جبّارةٍ لإخفاءِ الفجيعةِ. في الأيام الأولى، كانَ منَ الصعبِ إخفاءُ ألمي الشديدِ. كنْتُ كلّما رفعْتُ رأسي قامَتْ ميراي بإعطائي المنوّمَ، خوفًا منْ تفوُّهي بأيّةِ كلمةٍ. أمّا أمينٌ فاستغربَ درجةَ الانهيارِ الذي أصابَني، إذْ لمْ يجدْ مبرِّرًا لهذا التبرُّمِ، إلا أنَّهُ حافظَ على هدوئِهِ مُسائِلًا ميراي إنْ كانَتْ تعلمُ بأمرٍ ما أخفيهِ عنْهُ.

طوالَ الأزمةِ، كانَتْ ميراي سندي الوحيدَ وصندوقَ سرّي، وحاولَتْ ما حاولَتْ لتهوينِ الأمرِ عليَّ.

ـ ريفُ! كفاكِ ضياعًا على أرصفةِ الحزنِ.

ـ وجعي، يا صديقةُ، يهزُّ كِياني كزمجرةِ الأسُدِ. قليلةً كانَتْ أيامُنا معًا، لكنَّها كانَتْ عميقةً، كما البحر يخفي عنِ الورى دُرَّهُ. كائنٌ غيرُ محدودٍ هوَ، يرفعُني إلى حيثُ يشاءُ، ويحملُني إلى حيثُ أشاءُ... أما لانَ قلبُهُ حتّى قذفَ بي إلى ذاكرةِ الأيامِ؟

هوَ لمْ يُصَبْ بالرصاصِ، لأنَّهُ رجلٌ منْ كلماتٍ، والكلماتُ لا يخترقُها الرصاصُ. الكلماتُ لا تموتُ، بلْ تختارُ لنفسِها وطنًا منْ جنسِها. حينَ ضاعتِ الحكمةُ وانحلَّ الحقُّ، انبعثَتْ في أرضِ هذا

الوطنِ الميمونِ كلماتُ عاصي. لا يفسدُ الكلماتِ ضجيجُ الموتِ؛ الحرفُ، وحدَهُ، صانعُ الأبديةِ.

نهضَتْ ميراي إلى الشرفةِ، نادَيْتُها وأنا أحاولُ الوقوفَ: سنلتقي في ريو!

واصلْتُ، وهيَ لا تُخفي اندهاشَها: أنا أثقُ بهِ!

اقترحَتْ ميراي أنْ تقومَ الدكتورةُ مارسيا بتقييمِ حالتي، ووافقْتُ وتمنّيْتُ عليها أنْ تصحبَها، في أقربِ وقتٍ، إلى هُنا. على الفورِ، اتّصلَتْ ميراي بالدكتورةِ، وحُدِّدَ الموعدُ صباحَ الأربعاءِ. وهكذا، بدأَتْ رحلةُ علاجي الطويلةُ أمامَ تساؤلاتٍ عدّةٍ، كانَ أوّلُها وأهمُّها إمكانيةَ تماسُكِ نفسي وحزني أمامَ أمينٍ والأولادِ. لمْ أُفلِحْ كثيرًا في ذلكَ، وراحَ الجميعُ يخمّنُ الأمورَ ويختلقُ الأقوالَ، كما يحلو لهُ ويطيبُ. بعضُهمُ اعتقدَ أنّني على خلافٍ معْ أمينٍ وأنّنا سننفصلُ قريبًا. آخرونَ تركُوا مخيّلتَهمْ تنأى بظنونِها إلى حدّ القَولِ إنَّني أعاني مرضِ السرطانِ.

مضى شهرانِ وأنا على هذه الحالِ. اقترحَ أمينٌ أنْ أسافرَ إلى لبنانَ، لرؤيةِ أمّي. لمْ يكدْ يُكمِلُ جُملتَهُ، حتّى سبقَتْني ردّةُ فعلي، فاسْتكنْتُ لسلطانِ البكاءِ. صعقَني الألمُ منْ وطأةِ الذّكرياتِ التي مرَّتْ كصُوَرٍ مُتتالِيةٍ على رأسي. دنا منّي أمينٌ وضمَّني إليْهِ وطبعَ قبلةً على جبيني، قائلًا إنَّ كلَّ شيءٍ سيكونُ على ما يُرام. تصلّبْتُ للحظاتٍ في صدرِهِ، ولسانُ قلبي يقولُ: «ليتَكَ تعرفُ ما بي! إنّني لا أستحقُّ حبَّكَ لي». أبلغُ النجوى، وأعدُهُ بأنّني سأبذلُ جهدي حتّى تعودَ المياهُ إلى مجاريها.

لـمْ أجدْ لنفسي شيئًا آخرَ تقولُهُ، فقدْ كانَ أمينٌ حنونًا وطيّبًا، فهلْ أعرّي خيبتي أمامَهُ؟

شرعَ ضميري يستدرجُني، كأنَّهُ يُغريني بالتوبةِ والاعترافِ. تساءلْتُ ساعتَها عنْ جدوى مصارحتِهِ: ربّما سيرتاحُ ضميري، ولكنْ، ما عاقبةُ البوحِ؟

شعرْتُ أنّني أطوفُ حولَ سرابٍ، ولا أدري ماذا أفعلُ بأفكاري وبؤسي: هلْ أدفنُ سرّي معْ رحيلِ عاصي؟ وإنْ دفنْتُهُ ، فحقيقةُ ذاتي كيفَ أدفنُها؟ كيفَ للأنا أنْ تقفَ منْ جديدٍ أمامَ الذّاتِ، مرفوعةَ الرأسِ مُكابرةً؟ تُراني، سأجيدُ المشيَ إلى الأمامِ وإغلاقِ بابِ السالفاتِ منَ الذّكرى؟

يقفُ المرءُ عندَ الحدِّ الفاصلِ بينَ رغباتِهِ وواقعِهِ، ينحدرُ نحوَ الخطيئةِ ثمَّ يبكي على أطلالِ الفجيعةِ، يعيشُ ازدواجيةَ الوجهِ، ويُخفي تحتَ الوقارِ كبتًا موقوتًا.

لا يمكنُ الإقدامُ على الخيانةِ منْ غيرِ تحمُّلِ وِزْرِها، ولا يمكنُ معرفةُ الاتّزانِ بغيرِ ركوبِ الجُنونِ. فالإيمانُ لا يُدرَكُ لولا الكفرُ، والطهارةُ لا تُلَتمسُ لولا الخطيئةُ.

الحياة مزيجٌ متناقضٌ، ولكنَّ المثلَ الشعبي يختصرُ الحكايةَ: «ما مِتِتْ، ما شِفِتْ مينْ مات؟!».

في كلِّ ما يحيطُ بنا دعوةٌ إلى الخطيئةِ، وعلى الإنسان أنْ يقاومَ كي لا يُستدرَج إلى الحضيضِ، وإلّا فما نفعُ المبادئِ والقيمِ؟ الحياةُ محرابٌ للجنونِ، وطقوسُ العشقِ جزءٌ منْ هذا الجنونِ.

رفعْتُ كأسي الملأى بخيباتي وشربْتُ نخبَ الحياةِ وتواطئِها معْ جنوني. وقفْتُ أرقصُ وسطَ الخرابِ، وأفكُّ عرى الرحيلِ وأخلعُ عنْ روحي رداءَ الإثمِ. نحنُ لا نتعلّمُ إلا منْ قروحِنا وجروحِنا، لنجدَ أنفسَنا نؤجّلُ انتصاراتِ الحكمةِ إلى ما بعدَ السقوطِ، حينَ لا تساوي شيئًا أمامَ انحداراتِ الألمِ. قدْ نقاومُ، قدْ نحاولُ الهروبَ وإقناعَ أنفسِنا بأنَّ ما نمرُّ بهِ مجرّدُ وهمٍ، إنَّما يصيدُنا الذّنبُ بأنيابِ العاداتِ والتقاليدِ والحلالِ والحرامِ والوفاءِ، فنصلُ إلى بابٍ مسدودٍ.

راهنْتُ على الوقتِ فخانَني الحنينُ، ابتعدْتُ عنْ عاصي ولكنَّني ضعفْتُ. بكيْتُ وحيدةً أمامَ مرآتي فألفيْتُها مُخدَّشةً. حاولْتُ لملمةَ أجزائِي المُبَعثَرةِ فتعثّرْتُ عندَ أوّلِ لقاءٍ. عبثًا يبحثُ الإنسانُ، في المُحالِ وفي أزقّةِ المتاهاتِ، عنْ دفءٍ خافتٍ ضوؤُهُ، بعيدةٍ ظلالُهُ، مغمورةٍ ضفافُهُ بألفِ لا ولا. وحدَهُ القَدَرُ يؤثّثُ عمرًا، يكتُبُ قصصًا، يمحو وجوهًا ويرسمُ مصائر، وأحيانًا يرفعُ الجلسةَ ويحكمُ بالرقصةِ الأخيرةِ.

نتعاقدُ معْ مسرحِ الحياةِ، نعرضُ تراجديا وكوميديا وموسيقى، يأتي المسرحُ الميميُّ ليجعلَ الصمتَ والجسدَ طريقًا لاستنطاقِ المشاعرِ. تُسدَلُ الستارةُ، يبكي مَنْ يبكي ويصفّقُ مَنْ يصفّقُ، تمرُّ الأيامُ، وينسى الجميعُ.

عاصي سيّانِ ما بينَ رحيلِهِ وذكراهُ الألمُ، كالرصاصِ الذي أودِعَ صدرَهُ، كتاريخِ وطني، كأسى شعبي... كحقيقةِ خيانتي.



رولا فارس ضيا

مواليد العام ١٩٧٨، بيروت - لبنان. تحملُ الجنسيتينِ اللبنانية والباراغوانية. حائزة شهادتينِ: الأولى في الحقوق من جامعة Faculdade Dinamica das Cataratas في مدينة Foz do Iguascu البرازيلية. والثانية في العلوم السياسية والإدارية من الجامعة اللبنانية في الحدَث. وقد نالتْ شهاداتٍ في مهارات علم القيادة والذّكاء العاطفي، بعد دوراتٍ تدريبية أجرتها الجامعة الأميركية في بيروت. لا تزال تتابع تحصيلها العلمي؛ إذ هيَ، اليومَ، في مرحلة الماجستير بحقل العلاقات الدولية.

«للخريفِ مع الأرض حكايةُ أوراق تائهة، ولحكايتي مع الحبّ طعمُ ذاكَ الخريف. حبّهُ أربكَ زمني وشتّتني على أرصفةِ المُدُنِ، أناجي نوافذَ الخلاص. وحيدةً في عَتَمَةِ القدَرِ، في عقم الألفِ سؤالٍ، سلكْتُ طريقًا أذرت الريح ترابها، تشرّدْتُ على شواطئ الأحلام، في جزرٍ لا أسماءَ لها. هناكَ تذوّقتُ الفتنة كأسًا... وسكرْتُ. هناكَ رقصْتُ فرحًا... ونسيتُ. عدْتُ وبكيتُ، مزّقتُ ضعفي وانتحبتُ. سافرْتُ بحثًا عن اليقين وعبثًا حاولتُ. وجعٌ ينامُ وآخرُ يصحو. يتكسّر اللّيلُ براكينَ تحرق غفوتي، تهوي النجوم في غفلة، تتمزّق الدموع على وجنات الفجر. أفردُ جناحي لضوء النهار. ينبثقُ عطرُ الأرض فتتناثر ذكراه في كلّ مكان. يُلبسُني الخريفُ بحضورِهِ الآسِرِ ثوبَ الشوق والحنين، ويطعنُني الذنبُ بسكّين».



ISBN 978-614-432-567-4
9 786144 325674